أحلام الملائكة

رواية

صلاح شعير

اسم الكتاب: أحلام الملائكة
النوع : رواية
المؤلف : صلاح شعير
الناشر : دار الجندي

دار الجندي
للنشر والتوزيع
٤ش مهدي عبد المنعم ـ أرض أولاد علام
منطي ـ شبرا الخيمة ـ القاهره الكبري
تليفون : ٠١٢٢٢٩٥٠٢٢٩٢ ـ ٠١١١٩٤٢٩٧٨٠
المدير العام : **عاطف الجندي**

الطبعة الأولي- ٢٠١٦

الإخراج الفني: أمير شعير
رقم الإيداع: ٢٥٤٦٢_٢٠١٥
الترقيم الدولي: ٨_٢٩_٦٤٧٠ _٩٧٧_٩٧٨

إهداء

إلي كل عشاق الأمل

١ـ جميزة العم حافظ

هناك بقرية الجزيرة الغربية على فرع رشيد تقف الجميزة العتيقة شامخة تشق الفضاء، تزينها الثمار تارة، وتغرد الطيور الصداحة فوقها تارة أخرى، ترقص فروعها الطويلة مع النسيم الرقيق؛ لتنثر فوق الفلاحين ظلًا ظليلًا وهواء عليلًا، تزين الشجرة العروس حافة جرف طيني هائل يقترب ارتفاعه من عشرين مترًا، وأسفل الجرف مساحة خضراء زاهية تفصل بين الجرف والنهر.

تقبع هذه الجميزة كتاج أخضر فوق بضع قراريط زراعية هي كل ثروة عم حافظ الذي يعود سبب شهرته إلى ملكية تلك الشجرة، الفقراء يتغذون على ثمرها في منتصف الصيف،وربما كانت الفاكهة الوحيدة التي يعرفونها ويحصلون عليها دون مقابل، كانت سعادة عم حافظ ببناء السد العالي لا توصف فالفيضان كان يغمر قراريطه ومعظم أجزاء الشجرة ولكن بعد بناء السد أصبحت الشجرة العتيقة في مأمن من مياه الفيضان.

ومنذ أن شد طفله «نور» عوده في سن العاشرة عام ١٩٦٧ تولى الصغير مهمة تختين الثمار، فكان يشق ثمرة الجميز الخضراء بالسكين الصغير حتى يكون لها طعم حلو المذاق عند نضجها، وبعد أن تنضج ينقل بعضها إلى السوق للبيع؛ ليدخر ثمن كتاب «سلاح التلميذ».

توقف «نور» عن بيع الثمارعندما التحق بالمرحلة الإعدادية حيث استطاع أن يوفر ثمن كتبه من العمل خلال الإجازة الصيفية، وعلى أعتاب المرحلة الثانوية استعد الفتى للتفوق وللهروب من باحة الفقر نحو رحاب المستقبل الفسيح.

في الحقل يجلس « نور» مع جارته «غزلانة» في جلسات سمر بريء للاستمتاع برؤية النيل وهو يتدفق من الجنوب نحو الشمال، تداعب الرياح الرقيقة النهر، فتصنع تلك المداعبة موجات متتابعة يتنوع ارتفاعها حتى يقترب من ٣٠ سنتيمترًا أحيانًا، وفي الصيف كلما ازداد ارتفاع الموجة ازدادت رقة النسائم التي تتصاعد محملة ببخار ماء رطب يبهج البشر.

وفي الشتاء تكون النسمة الباردة المتصاعدة من النهر مصدرًا للإنعاش فرغم البرودة تسري لذة في الروح تبعث الهمة والنشاط، وربما كان هياج الأمواج هو ما يهدد قوارب الصيد الصغيرة المنتشرة، وكان الصيادون آنذاك وقت ذروة الرياح يفضلون الصيد بالقرب من الشاطيء أو يتوقفون حتى تهدأ الأمواج أو يتخيرون أوقات الظهيرة أو بعض أوقات من الليل حيث الهدوء والسكون.

كان الصياد «صقر» من إحدى القرية المجاورة، وعندما يمر في بعض الأحيان من جوار الجميزة العتيقة تقع عينه على «غزلانة» فيحاول التودد إليها فكانت ترتعد منه، فهو مشهور بالعنف والإجرام ولا يتورع عن إطلاق الرصاص على أي فرد في حالة غضبه،

فهو يرعب الصيادين في النهر والفلاحين فوق البر، وكان يفكر في إقامة علاقة جنسية مع غزلانة فعلى الرغم من أنها حامل وعلى وشك الولادة إلا أنها جميلة ومغرية ومثيرة، كانت تخشى أن يدفعه الشوق إلى أن يأخذها عنوة، كانت النسوة تحذرها منه فهو ذئب فاتك، وخاصة جارتها البكر حمدية ابنة الداية محبوبة حذرتها منه:

- حمدية: (بخوف) صقر عينه منك يا غزلانة

- غزلانة: (تخبط بيدها على صدرها) يالهوتي؟ هي ناقصة، مش كفاية الوزان البقال فيالرايحة والجاية نازل بصبصة وخايفةأجيب سيرة لحد والبلد تولعوالرجالة تقع في بعضها.

- حمدية: الوزان سمعته طين لكنه خواف لكن الزفت صقر لو حط واحدة في دماغه تبقى وقعتها سودة.

- غزلانة: يقطعني، وأعمل إيه دا جوزي خيخة ومش بتاع خناق.

- حمدية: حرصي على نفسك, الغلطة الواحدة تمنها حياتك.

تنصرف «غزلانة» والخوف يضرب رأسها، فهي لا تدري ماذا تفعل؟ جمالها وضعها عرضة لطمع الرجال، فقرها يقتلها والحرمان يدفعها للتمرد، تريد المال والثراء ولكن كيف؟ لم يكن زوجها «محجوب» الحلاق يمتلك سوى بضعة قراريط، وهي تحلم بالفدادين والعيش في سرايا مثل سرايا العمدة، تلك الأماني

تحاصرها وذاك الطموح يسيطر عليها، أحلام الرفاهية تجول بخاطرها فتتخيل أحيانًا أنها سيدة القرية، فهي أجمل من زوجة العمدة «عطوان المر»وتارة تحلم بأن تعيش في المدينة ولذا لم تكن تعير مطاردة «صقر» لها أي اهتمام ولكن خوفها منه كان يجعلها ترتعد.

وبعد العصر كان يحلو لـ«نور» أن يتابع جريان النهر من أعلى شجرة الجميز أو يرقب أعشاش اليمام ليعود بأفراخها الصغار لأمه كي تتذوق الأسرة البائسة طعم اللحم، وهو فوق فروعها سمع نور صراخًا ينطلق من حقل «غزلانة» تلك المرأة الشابة الفتية الجميلة، ماذا حدث لـ«غزلانة» جارته؟ دارت الهواجس في عقل «نور» ماذا حدث؟هل تعرض لها ذلك الوغد «صقر»؟! هبط من فوق الشجرة بسرعة وعند الجذع التقى بحمدية.

- نور: فيه إيه يا حمدية؟

- حمدية: يا مصيبتي ليكون الزفت «صقر» خطف غزلانة.

- نور: الفاجر يعمل كده عيني عينك؟

- حمدية: هو مفتريما يهمه حد.

- نور: (وهو يجري وخلفه حمدية) دي فيها رقاب يا حمدية هو الشرف لعبة.

- حمدية: (بسخرية) إياك أنت ح تقدر تحوشه؟ ولاح يخاف منك؟ دي الرجالة أم شنبات بتخاف منه؟

يصلان عندها لاهثين وهما يتساءلان في قلقلماذا تصرخ «غزلانة»؟ اقترب «نور» منها كثيرًا وجدها تقترب من مرحلة فقدان الوعي، ولا يوجد أي أثر لـ«صقر» في المكان، باستغاثة المحتضر المتعلق بالحياة التقت عيني «غزلانة» بعيني «نور» مستجيرة.

- غزلانة: الحقني يا نور.

- نور: (بقلق)مالك يا غزلانة؟!.

- غزلانة:الثعبان قرصني، حاسه إني هأموت.

- نور: (برجاء) ربنا يستر، فين القرصة؟ فين مكان القرصة يا «غزلانة»؟

أشارت «غزلانة» إلى مقدمة قدمها، على الفور قام نور بربط القدم فوق مكان اللدغة بطرحة «غزلانة» السمراء، وأخذ يشرط الجلد بطرف سكينه الصغيرة»وغزلانة» تصرخ تركها وأسرع إلى شجرة الجميز انتزع ثمرتين خضراوتين لم تنضجا بعد، وشق عنق الثمرتين بالسكين فسالت منهما عصارة بيضاء أخذ يدلك بها مكان لدغة الثعبان.

فجأة فقدت «غزلانة» الوعي وانخفضت درجة حرارتها، وأصبح جسدها كقطعة الثلج، هل فارقت الحياة؟ فصرخ «نور» وأحضر حماره الأبيض ودفع «غزلانة» أمامه وسندها بيديه، وانطلق بالحمار يتبعه ركب من الفلاحين إلى الوحدة الصحية، كان الفلاحون يهرولون خلف حمار «نور» والعرق يتصبب من أجسادهم النحيفة الهزيلة، كانوا في صمت مطبق،وخوف مرعب

على «غزلانة» وعلى الرغم من أنه لا حيلة لهم في علاجها، ولكنهم مندفعون برغبة في المساعدة، وهم لا يملكون لذلك سبيلاً، «حمدية» تتبعها بدافع الفضول وتقديم المساعدة إن أمكن، وكانت تهرول وهي في حالة ذعر بالغ خشية أن تفارق الحياة؟ كانت تتساءل في نفسها لوأن «غزلانة» أفلتت من الموت هل يمكن أن تفلت من صقر؟

لم تكن صورة «غزلانة»تغيب عن بال«صقر» ورغم أنه رآها محمولة على الأعناق بين الحياة والموت، إلا أنه تمنى أن تشفى كي ينال مراده، ولو عنوة، فهو قد تحرى عنها، وعرف أن زوجها ينام فوق سطح المنزل أما هيفتنام في غرفة داخلية بعيدة عن الحارة وعند غلقها لن يسمع أحد استغاثتها وسلاحه الآلي سيرهبها وستمر الواقعة بسلام فهو قد جرب ذلك عدة مرات، فقط ينتظر الوقت المناسب.

٢- البؤساء

كان البؤس قد تعاقد مع شرائح كثيرة داخل القرية، والعوز يضرب أكباد الجميع، وكان مألوفًا للمارة أن تسمع صرخات الأطفال تشق الفضاء من شدة الجوع لتصل عنان السماء دون جدوى، ولم تكن الأمهات تمتلك إلا بعض الحكاوي تصبرن بها الجوعى حتى يأتي الفرج بكسرة خبز من هنا أو رشفة لبن من هناك.

بالقريةينفلت ممر ضيق من «درب شاهين» يؤدي إلى «حارة الخياط» ذات المباني الطينية والملونة بلون التراب، يقطنها الفقراء أو المنحدرون إلى عالم الفقر، و «حارة الخياط» تلك مكونة من أربعة بيوت، هي بيت العم «حافظ» زوج «فوزية» أم «نور» وبيت «محجوب» زوج «غزلانة» وبيت «التهامي» خياط القرية ومنزل «محبوبة» الداية أم «حمدية».

يتكون منزل «فوزية» الطيني من غرفتينإحداهما كانت على هيئة قبو به ثقب من أعلى السقف للإنارة مغطى بسدادة من خوص ليمنع المطر في الشتاء والحرارة في ظهيرة الصيف، تتراص الأسرة فيها عند المساء للنوم في خط عرضي على حصير من الخوص الغليظ المصنوع من أعواد الكتان الجافة الحادة، ليطبع على جسد النائم خطوطًا عرضية وطولية بسبب النوم فوقه مباشرة دون فرش، ومن شدة التعب لا يشعر النائم

بوخز أعواد الحصير إلا عندما يتقلب ويتزامن الوخز مع لدغ البراغيث، وفي الصباح تزول تلك الخطوط المطبوعة بعد الاستيقاظ والانخراط في العمل، أما الغرفة الثانية فكانت شبه مهدمة وبها الفرن الطيني وبعض أدوات المعيشة.

برزت المشكلة الكبرى عندما اشترى «حافظ» أول جاموسة، فلم يكن لها مكان سوى صالة المنزل الصغير وكانت عندما تتبول يتحرك ذيلها يسارًا ويمينًا فتتناثر بقايا البول وبعض الروث على غرفة النوم لتسقط تلك الأوساخ على وجه هذا أو ذاك، ونتيجة امتلاك جاموسة تدر لبنًا مرتين في اليوم لبن الوجبة الأولى في الصباح يستخدمه في صناعة الجبن والسمن، أما لبن الوجبة الأخرى في المساء فيباع للاستفادة من ثمنه.

تحسنت حالة الأسرة بعد أن اشترت الدار المهجورة المجاورة، وتعددت الغرف وأصبح لـ«نور» غرفة مستقلة ينام فيها وحده.

بوابة الحارة هي ملتقى النسوة كي يطللن على شارع القرية الكبير ليرقبن المارة والقادمين والضيوف فهذا الشارع هو صحيفة الحال التي يعلمن منها أخبار القرية، يجتمع النسوة قبيل المغرب يتهامسن في ود بالغ ويقصصن ملاحم ليلة العرس ويداعبن بعضهن البعض، كانت الضحكات تنفجر عذبة على شفاه قاحلة ليمتزج الرضا بالألم، والقناعة بالأمل، فلم تكن أحلامهن تتجاوز دجاجة مسلوقة في العشاء يخصص نصفها للأسرة، والنصف الآخر للزوج لكي تزداد فحولته عندما يحل

المساء، ودائمًا ما كانت «فوزية»زوجة العم «حافظ» تفترش الأرض تقص على النسوة ملحمة مخاض ولادة «نور» كأنها تقص السيرة الهلالية.

كثير من الفلاحات يلدن أثناء العمل في الحقول، ويأتيهن طلق المخاض في دقائق ويضعن المولود في دقائق أخرى، وهذا ما حدث عند ولادة «نور» عندما كانت «فوزية» تعمل في حقل العمدة، وجاءها المخاض فجأة، وفي لحظات قذفت بابنها «نور» إلى الحياة ليخرج من الرحم مباشرة مع آخر زفرة لتستقبله الأرض اليابسة القاحلة التي تشققت من العطشوسكنتها الكثير من الحشرات، هبط المولود أسفل سيقان شجرالقطن بين الخطوط الترابية الجافة أثناء الظهيرة الملتهبة، وفي ظل الارتباك لحظة المخاض خلع رئيس العمال جلبابه المهلهل المشبع بالعرق وقذف به إلى النسوة لتلف به الرضيع حتى لا تقتله حرارة الشمس، ونظرًا لشهامة رئيس العمال «نور» الذي دفع بجلبابه الوحيد الذي لا يملك غيره أطلقت «فوزية»اسمه على ولدها عرفانًا بالجميل.

كان شظف العيش يدفع النسوة إلى الحرص على العمل وجمع القطن ليساعدن أزواجهن في مواجهة قسوة الظروف ورقة الحال، فتلك فرصتهن الوحيدة لشراء كسوة العام، في عالم الفقر لا يوجد وقت للراحة أو الرفاهية، بعد أن هدأت الشمس نهضت «فوزية» وترجلت بولدها إلى المنزل بعد أن أرضعته، ثم نهضت لتعد العشاء لزوجها «حافظ» وابنها «سيد»، ولم يكن العشاء سوى بعض البليلة المصنوعة من حبات القمح

المغلية في اللبن، يلتهم كل فرد ملعقتين من البليلة، في اليوم التالي ذهبت للعمل وأسفل خيمة صغيرة بالقرب منها بين عيدان القطن فرشت الأم بعض الجلابيب المهلهلة ليرقد الرضيع عليها اتقاءً لخشونة الأرض، أوخوفًا من أن يجرح من لوز القطن المتناثر حوله، فلوزة القطن الجافة أطرافها اليابسة منحنية للخلف حادة كالدبوس، وعندما تلامس الجلد تسبب آلامًا حادة، ولذا كانت تحرص على صغيرها «نور» بشدة.

تصادف يوم ولادة«نور» أن زوجة العمدة «عفت» هانم كانت تمر بحالة ولادة متعثرة وقد أحاط بها عدة أطباء فعفت هانم متزوجة منذ عشر سنوات من العمدة «عطوان المر» الذي ينتظر المولود الأول بفارغ الصبر، العمدة كان في ذهول فقد سمع أن زوجة «حافظ» ولدت في حقل القطن بيسر كأنها دجاجة تضع بيضة، أما زوجته فمعلقة بين الحياة والموت، ووريثه الأول يأبى أن يصل إلى الدنيا، وبعد عناء وضعت زوجة العمدة ابنها الوحيد «شوكت» وبعد الولادة المتعثرة جف لبنها، ولم يكن هناك حل إلا «فوزية» تلك الفلاحة التي تولت إرضاع ابن العمدة مقابل طاجن لبن كل صباح ودجاجة في الأسبوع وبعض الحبوب حتى يكون اللبن دسمًا وكافيًا للطفلين، وهكذا انفرجت حياة أسرة الشيخ «حافظ» لمدة عامين وأصبح «شوكت» ابن العمدة أخًا لـ«نور» في الرضاع.

في شارع القرية الرئيسي يجلس الحلاق «محجوب» زوج «غزلانة» منهمكًا في حلاقة ذقن الغفير«بشندي»

فشفرة الموس تتحرك بصعوبة على شعره من غزارته وقوة بصيلاته.«بشندي» يسند ظهره للحائط وفاتحًا فاه ببلاهة، وبعض الذباب يتسابق في الدخول إليه.

يفتح باب منزل «بشندي»فيُسمع له صوت كأنه أنين رجل يحتضر، فالشمس الحامية كادت أن تحرقه لتتناثر منه شظايا صغيرة تخترق راحة يد الطارق، ولولا سمكه لانهارت الألواح الخشبية لتذوب تحت الطرق، كان صوت بشندي المزعج وهو يطلب الماء لكي يشرب كأنه سوط يلهب ظهر زوجته. تخرج «عناكب» بقلة فخارية يكسوها ريم أخضر في نصفها الأسفل، وقبل أن تصل إليه تصطدم بالباب فتكاد أن تفتته من شدة الاصطدام، تنهض عابسة وتتقدم بها نحو «بشندي» بضع خطوات كأنها فحل بقري طليق تدفع القلة عنوة في وجهه كأنها تسدد ضربة قاضية في حلبة ملاكمة لخصم ضروس.

- عناكب:(بعنف)خد القلة.

- بشندي: (يزمجر كالأسد) بالراحة يا بت.

- عناكب: (تزوم بقرف) اللي تعاشرك تعرف راحة! عمال تزعق وصوتك جايب لآخر الدنيا القلة يا بت، القلةيا بت، مرة واحدة كفاية، خد القلة أهي.

- بشندي: عطشان يا ولية.

- عناكب: خد اشرب ياكش يكون القحط نزل، ياراجل بالراحة وانت بتنادي.. البلد كلها سمعت صوتك وانت بتزعق، هو أنا جارية عندك.

دفع «بشندي» الحلاق بيده حتى كاد أن يلقيه على ظهره ثم رفع قلة الماء إلي فمه كأنه آلة شفط لا تسعفها الفتحات التي تنقل الماء من عنق القلة إلى حلقه، وظل هكذا حتى أنزلها فارغة، وتكرع بصوت يشبه صوت وابور الطحين، ودفع لزوجته القلة بقوة طور هائج انفلت من محبسه، خطفت عناكب منه القلة وهي عابسة، وقبضت عليها بقوة المقاتل القابض على سيفه ودخلت وأغلقت الباب ليسمع صوت أزيز غلقه.

تعجب الحلاق«محجوب»من هذا الحرص في غلق الباب وفتحه، وتساءل بينه وبين نفسه لماذا تحرص عناكب على غلق هذا الباب؟ فليس في المنزل ما يغري باقتحامه، حتى الجرذان لن تفكر في أن تدخله لشدة فقره، وتلك الزوجة لا يمكن لرجل عاقل أن يفكر في الاعتداء عليها فهي عنيفة كأنها مصارع غادرت الأنوثة ملامحها، صوتها غليظ مزعج كأنه صوت سارينة قطار الفحم.

لم يكن «محجوب» أقل ضيقًا وغيظًا من عناكب فقد كان منظر «بشندي» وهو يشرب والماء يتناثر من فمه على جلبابه منظرًا مستفزًا، سيطرت على محجوب فكرة مجنونة للانتقام منه ولكن كيف له أن يصارع ذلك المارد؟ فمنظر فمه المفتوح الذي تنبعث منه رائحة البصل تشغل الحلاق عن أداء عمله، بدأ محجوب يبلل فرشاة الحلاقة بالصابون حتى تحمل رغاوي كثيفة، وبحركة غير إرادية،وبغيظ بدلًا من أن يحرك الفرشاة بالصابون على ذقن «بشندي»دفع الفرشاة كاملة في فمه ثم نزعها بعد أن أفرغ ما تحمله من صابون في فمه.

سيطر الخوف على «محجوب» من ردة فعل «بشندي»فقدأوقع نفسه في خطأ لا يحمد عقباه، لابد أن «بشندي» سيغضب فهو لا يفكر ويداه الغليظتان تسبقان حديثه، بسرعة بدأمحجوب في صوت خفيض يقدم الاعتذار:

- محجوب: غصب عني يا بشندي الفرشة اتزحلقت مني.

- بشندي: (علي غير عادته ..وبلا مبالاة)، ولا يهمك.

تنفس محجوب الصعداء، وحمد الله على السلامة وأتم الحلاقة بسلام، لقد تكبد معاناة في حلاقة ذقن ذلك المارد العملاق، انفلت «بشندي» كعادته بعد الحلاقة نحو الترعة التي لا تبعد عن منزله سوي عشرات الأمتار، وتجرد من ملابسه تمامًا وألقى بها على الشط وقذف بنفسه في الماء ليغطس عدة مرات وكلما خرج إلى سطح الماء ينفخ بفمه فيتناثر الماء حول وجه كأنه آلة رش، وما هي إلا دقائق حتى تتبعه «عناكب»على شط الترعة بجلباب نظيف وتلتقط جلبابه الملبد بالشعر لتغسله في المياه الجارية.

على حافة الترعة ومع آخر ضوء بعد الغروب ينطلق نقيق الضفادع يعزف سيمفونية موسيقية تمتزج بظلام الليل، فيمتلئ المساء ثورة وغموضًا.

يعود «بشندي» إلى منزله في جنح الظلام ومن خلفهبعض النسوة يساندون «عناكب»، حتى باب المنزل وهي لا تكاد تقوى على السير، تمددت «عناكب» على مصطبة طينية على هيئة سرير في غرفة داخلية.

ظل«بشندي» في حالة ذهول فمنذ أن تزوج «عناكب» من عشرة أعوام لم تمرض قط ولم تعد في يوم ما محمولة على الأعناق، فهي تستطيع أن تحمل فوق رأسها جوال قمح زنة ١٠٠ كيلو، ماذا حدث لهذه المرأة المارد؟ هل ستفارق الحياة فجأة؟ لقد تذكر «بشندي» أمه التي توفيت منذ خمس سنوات فبعد أن عادت من الترعة يسندها بعض النسوة فارقت الحياة في اليوم التالي.

لأول مرة تذرف عينا «بشندي» الدموع، وأخذ يتساءل في رعب هل ستفارق «عناكب» الحياة وتتركه وحيدًا؟ لم تتخيل النسوة التي بصحبة عناكب أن هذا المارد سوف يبكي!وهل أصابها مرض قاتل؟ هل هي النهاية والفراق؟ كل الهواجس كانت تدور في رأس «بشندي» بذل محاولاته اليائسة في علاجها فلم يكن أمامه سوى أن يشق بصلة نصفين ويعصرهافي أنفها دون أن تعود إلى الوعي، فوباء الكوليرا يهدد القرية وخاصة أنه رعى بالقرى المجاورة منذ أسبوع.

ولم يكن «بشندي» أو زوجته من النوع المألوف، ولكن «نور» بالنسبة لهما كان عوضًا عن الابن، وكانت تلك الصداقة مثارًا لدهشة الجميع، تذكره «بشندي» في هذه اللحظة لكي يرشده ماذا يفعل فهو الخبير بالعلاج، الراجح العقل، ولكن أين هو لكي ينقذه؟

٣- الغيرة القاتلة

ترقد «غزلانة» في غرفة الكشف بمستشفى القرية، أعلى المستشفى سكن للطبيب «إبراهيم جاد» الذي حول سطح المستشفى إلى حظيرة دجاج وبط فهو يحب الأكل بشراهة، وأهل القرية البسطاء يمدونه ببعض الحبوب أو الخضر لتغذية الطيور كرشوة، والبعض يتقرب منه تارة بدعوة على وليمة أو سلة بيض هدية.

يتحرك الطبيب البدين بصعوبة في غرفة الكشف، ويفحص «غزلانة» فهو يكاد من فرط سمنته أن يكون فيلًا بشريًّا، يتحرك بصعوبة، أنفاسه ثقيلة، وعندما يأكل لا يترك في بطنه جزءًا للهواء أو الماء ولكن هذا الثقل يقابله خفة دم وبساطة ممزوجة بشيء من الانتهازية، وعلى الرغم من ذلك فهو يلقى الحب والقبول.

تأكد للجميع في الخارجأن الذي أصاب «غزلانة» يتمثل في بقايا سم عضة الثعبان، بعض الفلاحين ينتظرون بقلق ما هو مصيرها؟ هل نجح «نور» في تخفيف مفعول السم؟ في ظل هذا القلق كان رونق المستشفى المتواضع ولمعان بلاطات الرصيف الملونة حول المبنى يثير انبهارهم وخاصة أن بيوتهم كلها من الطين، هذا جعل من يرتدون أحذية يخلعونها عندما يصعدون فوق الرصيف خوفًا عليه من الطين،

كان الطبيب ينهرهم على ذلك الفعل خوفًا عليهم من العدوى وخاصة أن أقدامهم بها شقوق غائرة نتيجة البلاجرا والعمل الشاق، وهذا يسهل انتقال الأمراض الجرثومية أو البكتيرية.

عادةً ما تكون عضة الثعبان قاتلة، هل يفلح الطبيب«إبراهيم» في علاجها ؟ تُفتح غرفة الكشف ويخرج الطبيب يصارع أنفاسه ويتحرك بصعوبة يتجه نحوه «نور» بفضولوترقب:

- نور: خير يا دكتور؟

- الطبيب: الحمد لله.

- نور: هل زال أثر سم الثعبان؟

- الطبيب: نعم زال بفضلك، فمنذ قيامك يا نور بفتح مكان العضة بسكين وتصفية الدم الملوث زال الخطر، ولكن المشكلة أن «غزلانة» تعاني من ضعف حاد.

- نور:ما هو العلاج يا دكتور؟

- الطبيب: تأكل لحومًا وتشرب لبنًا مع الدواء.

يومئ «نور» رأسه إلى أسفل، وتبدو علامات الحسرة على الفلاحين فهم يعلمون أن اللحوم حلم بعيد المنال وتلك النعمة غير متاحة للفقراء، تخرج «غزلانة»وهي تتحرك بصعوبة وجهها شاحب فهي كانت منذ الصباح تقوم بفلاحة أرض الذرة وتنظفها من الحشائش بفأس كبير ولم تتناول أي طعام، كان معها كسرة خبز

واحدة في منديل قماش أكلها منها محجوب قبل أن تخرج من البيت كالعادة، فهو منذ الزواج لا يراعي أن له شريكة حياة تحتاج إلى غذاء فهي لا تأكل إلا مرة أو مرتين في اليوم، وزادها بضع لقيمات وكوز ماء من الزير، وأحيانًا بعض الرشفات من الشاي.

تعود «غزلانة» إلى المنزل قبل المغرب بنصف الساعة، وكان نور يفكر كيف يدبر وجبة لحم لغزلانة، وفجأة تذكر أعشاش اليمام التي يرقبها فوق الشجر على حافة النيل حيث أفراخ اليمام تضع بيضها وتخرج صغارها، ودون تردد أخذ غلقًا من الخوص وربطه حول وسطه وتحرك نحو تلك الأشجار بحافة النهر، فتلك الأشجار هي مستقر الطيور مثل اليمام والعصافير فالماء على بعد أمتار في النهر والحبوب تملأ الحقول.

صعد «نور» فوق الأشجار وبعين الخبير كان يحصد اليمام اليافع ويترك الصغير ليتم نموه، مستهينًا بمخاطر الصعود فوق أطراف الأشجار العالية، فذلك يساوي الحياة، فالطيور بفطرتها كانت دائمًا ما تضع أعشاشها على أطراف الغصون التي تمتد على حافة الجرف جهة النهر كأنها أدركت أن الغصون الضعيفة لا تقوى على حمل إنسان، عاد نور بثلاثة أجواز من اليمام لينجد امرأة حاملًا هزمها العوز وسوء التغذية.

قامت أمه «فوزية» بطهي اليمام وحشوه بالفريك الذي تبرعت به جارته زوجة «التهامي» خياط القرية واستقر رأي النسوة على دعوة «غزلانة» كل يوم لتتناول جوز يمام وحدها في وجبة الغذاء بمنزل الشيخ

«حافظ» حتى لا ينقض عليه «محجوب»، وتعهدت «محبوبة» الداية بأن تقدم لها في كل صباح رغيفًا كاملًا مع بعض العسل الأسود ومنحتها «فوزية» كل مساء كوبًا من لبن الجاموسة،وفي غضون أيام تحسنت صحة «غزلانة»، بعدما أفني نور أفراخ اليمام من فوق الأشجار.

يمر العمدة يتفقد العمال في حقله، فتشتد غيرته عندما يسمع الفلاحين يتسامرون عن فحولتهم في المساء مع النسوة، فما يسمعه منهم خلسة في لحظات السمر بالنسبة له أمور خارقة، وعادةً ما كان يسترق السمع فهم لو شعروا بقدومه سوف يصمتون كأن على رؤوسهم الطير، لم يعلم أن الشمس الساطعة فيها غذاء للجسد يفوق في تأثيره أشهى الأطعمة المنشطة، لم يعلم أن الله وهبهم السعادة في الرضا، تنطلق ضحكات الفلاحين مدوية وسواعدهم الفتية تشق الأرض بضربات الفؤوس الحامية دون كلل أو ملل، ليخرج مع قطرات العرق النبت الطيب يفيض الخيرعلى غيرهم وهم منه محرمون، ومع ذلك الحرمان ترى الأمل يملأ وجوه الكادحين، وحب الحياة يرسم السعادة على تجاعيد الجبين المنكسر، يتساءل العمدة لماذا هم راضون هكذا؟ وما سر تلك السعادة؟

يكتم العمدة «عطوان المر» غيظه والجنون يضرب رأسه عندما يرى قوة التحمل لديهم، فهذا «بشندي» يمشي على الأرض الملتهبة بحرارة الشمس وقت الظهيرة حافي القدمين دون ألم أو معاناة، البشر في القرية قد توحدوا مع الطبيعة فمنهم من هو صديق

للشمس، ومنهم من هو قاهرللبرد، رغم أنهم مغموسون في الطين والتراب والشقاء، ترى في عيونهم الأمل، كأنهم وقعوا معاهدة سلام مع الحياة القاسية، كان العمدة يرى أن الأمل عند هؤلاء يهزم اليأس، والشهامة والكرم ينتصران على الشح، والرجولة هيأهم خصال أولئك الفقراء.

في العام الماضي عندما نفقت جاموسة العم «شاكر» والد «بدوية» خطيبة «سيد» ابن العم «حافظ» وأوشك أن يفقد المكلوم حياته حزنًا عليها، تجمع حوله أهل القرية الفقراء منهم من باع دجاجة في بيته وآخر باع نصف خزين البيت من حبوب القمح والآخر دفع أجرة أسبوع، وفوجئ العم شاكر في اليوم التالي أن تلك الحفنة البائسة من البشر تدخل عليه بجاموسة قد اشتروها له ليعيش على لبنها.

رغم أن خلفة الذكور بالقرية آنذاك كانت من دواعي العزوة ومحلًا للفخر وقتها، وبعد تلك المؤازرة شعر «شاكر» أن كل شباب القرية أولاده، وابتسم برضا فقد كان شوقه للولد كي يجد من يشد من أزره وقت المحن وها هي القرية كلها أولاده، وقتها منح الفقراء العم شاكر إحساسًا بالأمان أذاب همه وحسرته على عدم إنجاب الذكر.

الترابط بين الفلاحين كان مثار حسد من العمدة فهو دائمًا في خلاف وتناحر مع أقاربه وأولاد عمومته، كان يشعر أن أهل القرية رغم تظاهرهم له بالطاعة إلا أنه يشعر أنهم لا يحبونه بقدر ما يحبون بعضهم

البعض،إنهم يوقرون بعضهم البعض، ويتقاسمون فتات الطعام بكرم وسخاء فمن علمهم تلك القيم؟ من زرع فيهم تلك السماحة؟ فعندما يرقب العمدة السوق يجد اللبن والسمن والطيور والبيض، يتساءل كيف وفروا تلك الخيرات من أقواتهم الهزيلة؟ من علمهم فنون الاقتصاد؟

فهو رغم ثرائه لا تكاد حظائره تلبي احتياجاته، لهذا الحد يستطيعون قهر شهوتهم للطعام، كان العمدة يعلم لو أن أحدهم منح فرصة واحدة للثراء لسبقه واستحوذ على القرية وأرضها تلك.

كانت المفاجأة الثانية والسارة أن «عناكب»بخير، لم تكن مصابة بأي داء، فتلك الآلام التي عادت بسببها محمولة إلى المنزل، هي آلام الحمل، وأخيرًا بعد عشر سنوات، سيصبح«بشندي» أبًا، فقد أقسم للطبيب بعد البشرى إن جاء المولود ذكرًا سوف يطلق عليه اسم «نور» فهو يتمنى أن يكون ولده مثله، ضحك الطبيب إبراهيم مستغلًا تلك الفرصة:

- الطبيب:وماله البلد بحالها عاوزة تسمي كل مولود ييجي على اسم «نور»

- بشندي:(يزوم مستنكرًا) وهو فيه أحسن ولا أرجل من نور ابن عمي حافظ (بسذاجة) ياكش تكون غيران منه عشان ح يبقى حكيم الوحدة الصحية مكانك.

- الطبيب:(يضحك مستبشرًا) ساعتها أكون طلعت معاش.. المهم إياك تنسى الحلاوة.

- بشندي: (برضا)ح أبعتلك فرخة وخمس بيضات.

- الطبيب: يارجل بطل بخل ابعت عشرين بيضة للفطار وفرختين ووزة للغدا.

- بشندي: (بذهول) يا سنة سوخة ح تفطر بعشرين بيضة وتتغدى بوزة وفرختين بحالهم؟

- الطبيب: الله أكبر خمسة وخميسة أهو أنتم كده يا بلد باصين في لقمتي وهدمتي.

- بشندي: ولا يهمك أنا ح أسرق لك بقرة العمدة كمان تتعشى بيها.

- الطبيب: حد الله بيني وبين الحرام هات اللي طلبته بس.

ينصرف «بشندي» وسط ضحكات الحاضرين وقد وافق على تلبية طلبات الطبيب، وعاد لمنزله مفعمًا بالأمل من وقع الخبر.

وأصبح «بشندي» يجل «نور» أكثر فقد استقر في ذهنه أن دعاء الفتى المستمر له ولزوجته بالذرية الصالحة ربما كان السبب في ذلك الحمل، وتذكرأيضًا أن المحافظ قام بزيارة مدرسة القرية الإعدادية لتهنئة «نور» لفوزه بجائزة الجمهورية الأولى في حفظ القرآن الكريم منذ ثلاثةشهور، وقد أوغر ذلك صدر العمدة بسبب تفوق «نور» على ولده «شوكت» فقرر أن يختطف ذلك النصر ليفتخر بدعوة المحافظ لتناول الغذاء عنده في السرايا الكبيرة، وأعد العمدة وليمة فاخرة حتى يصنع لنفسه شرف استضافة المحافظ بعد الانتهاء من زيارة المدرسة.

وكان قبول تلك الدعوة سوف يعزز في أذهان أهل القرية صورة العمدة «عطوان المر» كرجل له علاقات قوية بالقيادات، فالمأمور ومدير الأمن والمحافظ هم رواد السرايا العتيقة وكان ذلك يضفي عليه رهبة وجلالًا، لكن المحافظ خيب آماله وزار بيت العم حافظ المتواضع واعتذر عن وجبة الغذاء لدى العمدة.

أصيب العمدة يومها بالإحباط، وغضب أيضًا كل المرافقين للمحافظ وأعضاء الإدارة التعليمية ورجال الشرطة فكل هؤلاء كانوا سيلتهمون غداء شهيًا مشهودًا لصاحبه بكرمه وسخائه مع كبار المسئولين فقط، بعدها أصبح الطعام معرضًا للتلف فقامت زوجة العمدة عفت هانم بتوزيعه على الخدم والخفراء.

وفي ذلك اليوم المشهود حصل بشندي على حلة كبيرة بها لحوم وحلتين أخرتين بهما أنواع كثيرة من الأطعمة، فعاد بها لزوجته ولم يكن الزوجان يعرفان أسماء تلك الأطعمة، وبعد العشاء الفاخرارتمى بشندي في أحضان زوجته يمارس العلاقةالزوجية بحميمية حتى الصباح، واليوم بعد أن سمع خبر الحمل استقر في ذهنه أن تلك اللحوم هي السبب في الإنجاب ومن ثم يرجع الفضل في ذلك حسب تفكيره لـ«نور».

كان «شوكت» ابن العمدة لا يفارق «نور»، وهذه الصحبة تؤدي إلى غيابه عن السرايا لساعات كثيرة، أصبح ذلك الصبي هو غريم العمدة «عطوان المر» فهو غير مستريح لتلك الصداقة ويغار دائمًا من تفوق «نور»وكثيرًا ما يحاول إقناع أبيه «حافظ»

بعدم تعليم ابنه بحجة توفير المصاريف وحاول إغراء العم«حافظ » بتعيين ابنه «نور» كاتبًا للعزبة مقابل أجرة رجل كاملة.

ربما هذا الطرح كان وقتها مغريًا، فوظيفة كاتب العزبة هي منتهى أحلام الفقراء، فكاتب العزبة يمر على الأنفارفي الوسية راكبًا الحمار وفوق رأسه شمسية تقيه من الشمس، ويسجل العاملين، يدون كل ما بالمزرعة من مواشي وما بالمخازن من حبوب أو أقطان هو الوحيد الذي يحصر ما تنتجه الأراضي، في هذا المساء عاد «حافظ» وهو مرتبك من تلك الفكرة التي سوف تسفر عن مغادرة «نور» المدرسة، وضياع حلم ولده في أن يكون طبيبًا للقرية، الخوف يضرب قلب الأب فربما يدبر العمدة حادثة لـ«نور» حتى لا يتفوق على ولده «شوكت» وهذا ما يجعله خائفًا على مستقبل ولده فهذا الإقطاعي لا يتورع عن شيء حتى وإن كان القتل.

٤- السرايا

يجلس العمدة على مقعد فخم أمام السرايا الكبيرة التي تتكون من طابقين، فالسرايا بها مسحة العمارة العثمانية، وكأنها من عبق القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين فالهندسة والتصميم المعماري به تقنية الفراغاتِ الكبيرة في البناء الواسع، مع انسجام مثالي بين الفراِغات الداخلية والخارجية بما يسمح للضوء بأن يتكامل مع الظل طوال اليوم.

ويظهر من جمال الطراز المملوكي بعض الزخارف البديعة على حوائط السرايا، فمداخل أبواب الغرف عالية،أما الباب الرئيسي فيشبه أبواب القلعة، وتوجد عليه رسوم وزخارف فائقة الجمال، كما أن الشبابيك كبيرة، ويصل ارتفاعها إلى مترين، وشكلها من أعلى بيضاوي على هيئة نصف دائرة، ولونها الذهبي الممزوج بالفضة يشبه قرص الشمس وقت الشروق، وتبرز هندسة العمارة الإسلامية من خلال بعض الرسوم الشجرية على أعمدة الشرفات.

وعلى غرار العمارة الأوروبية تتنوع الأساليب الفنية الجديدة من خلال بعض التماثيل التي أبدعها النحاتون والفنانون في البهو الكبير، وبعض الرسوم الفنية المجردة التي لا تعكس الأشياء، أو الأشكال الحقيقية, بل تركز على بث الشعور بالراحة، وتريح أعين الناظرين، والألوان ترفع الإحساس بالنشوة والمتعة بما ينعكس بالإيجاب على الحالة النفسية.

أمام القصر ساحة واسعة ومن الشمال حديقة كبيرة تضم كل أنواع الفواكه يتصل بها طريق خاص يؤدي للطريق الرئيس على ترعة النعناعية وطريق آخر يتصل بمحطة القطار والطريقان مزينان بأشجار وردية.

المكان لوحة طبيعية آية في الجمال، ويجمع بين عبق العمارة، وتداخل الحضارات، وجمال الريف، فكل قطعة بها تنتمي إلى عهدٍ ربما أبعد من ذلك، وكان الدخول لهذه السرايا أملًا للفلاحات ولو للعمل خادمات أو تنظيف السرايا فذاك يتيح لهن مشاهدة مكان رائع ويشفي فضولهن، وكثيرًا ما كانت «غزلانة» تحلم بدخول تلك السرايا وامتلاكها، وكان هذا الخيال ضربًا من الجنون، فالأماني المستحيلة كانت تغوص في أعماقها،ولم يكن الرجال أقل حالًا من النسوة فهم أيضًا كانوا يفضلون القيام بأي عمل بالسرايا أو بحديقتها للاستمتاع بذلك المشهد الخلاب ولو بالسخرة.

يلمح العمدة من على مسافة بعيدة أمام البوابة الرئيسية للسرايا ابنه «شوكت» يجذب «نور» لدخول السرايا مبالغًا في التودد، أغاظه ذلك التمنع من قبل الفتى الذي ظل يرفض الدخول، تملكه الغضب واعتقد أن ذلك نوع من الترفع، فهو يرفض تلك الصداقة، فكيف لابنه الوحيد أن يفضل صداقة ابن أحد الفلاحين على أولاد أعمامه وأقاربه من علية القوم، كان «نور» يدرك بذكائه الفطري حجم الغيرة في قلب العمدة؛ لذا كان مصممًا على رفض دعوة صديقه، وفجأة تقدمت «عفت» هانم بسرعة تجذب «نور» للدخول، فهي تحبه ولا تزال تذكر فضل أمه «فوزية» في إرضاع ابنها

«شوكت» كانت تشعر أن «نور» أخوه.

يدخل «نور» في كبرياء وشموخ، ويلقى السلام على العمدة:

- نور: السلام عليكم

- العمدة: (يرد متبرما) وعليكم.. إيه ياد يا بن حافظ مستكبر تخش سرايا العمدة، خلاص عشان المحافظ دخل دراكم ما حدش عاد مالي عينك.. ياكش كنت عاوز العمدة يقوم يستقبلك.

- نور:(بثقة وأدب) العفو يا عمدة المقامات محفوظة.. بس أنا كنت مستجل عشان عندي حصة.

- العمدة:(يزوم بغيظ)حصة؟.. بيقولوا إنك عامل مجموعة تقوية لتلامذة الابتدائي، وكمان عاوز تبقي دكتور.

- نور:لازم أساعد ولاد بلدي، وبعدين أنا وشوكت ح نبقي دكاتره بإذن الله.

- العمدة:(تنفرج أساريره) طيب خد بالك منه، حاكم إنت نبيه شويتين عنه.

- نور: في عيني يا عمدة.

يجلس الصديقان على دكة خشبية رائعة التصميم، وعلى الفور تأمر عفت هانم إحدى الخادمات فتحضر طبقًا كبيرًا به أنواع من الفاكهة الطازجة، ولكن «نور» يعتذر بشدة عن تناول أي شيء وكان ذلك التعفف يشعر «العمدة» بالغضب ويجعله دائم التساؤل

كيف لصبي فقير أن يستغني عن كل ما يقدم إليه؟، إن الأعيان وكبار المسئولين يتخطفون الطعام والفاكهة من فوق المائدة كأنهم قادمون من بلاد القحط والمجاعة.

فهذا الصبي علاوة على تفوقه وذكائه يترفع على تناول شربة ماء داخل السرايا وتلك هزيمة أخرى للعمدة فإنه يدرك بحس الإقطاعيين أن من يمتلك تلك الإرادة والقناعة هو قائد المستقبل، وكثيرًا ما كان يتساءل من أين ورث نور تلك الصفات النبيلة؟ «نور» سيكون بمثابة العمدة الفقير للقرية وسوف يديرها حتى لو كان قابعًا في كوخ، يقطع شرود «العمدة» إلحاح «عفت» هانم على «نور» بتناول الفاكهة ورفض الفتي يتدخل العمدة غاضبًا:

- عفت: (بحنان الأم تمد يدها) طيب خد دي من إيدي.

- نور: (يأخذها بأدب جم ويضعها مرة أخرى في طبق الفاكهة)

- العمدة:(بغيظ) كل يا نور، ده تفاح أمريكاني عمرك ما ح تشوفه في حياتك.

- نور:شكرًا يا حضرة العمدة، أنا لسه واكل.

- العمدة: (بتهكم) جميز؟

- نور: جميز الحاج حافظ عندي أحسن من أي تفاح.

- العمدة: (يضحك بسخرية) هو أبوك حج؟ طيب راح السعودية إمتى؟

- نور: (بثقة) أبويه زي ما يكون بيحج كل يوم خمس مرات، في كل صلاة بيوجه رأسه للقبلة والكعبة الشريفة بيجدد العهد والنية لزيارة الحبيب، ولما الفرج ييجي ح يحج يا حضرة العمدة.

- العمدة:(يتملكه الغضب أكثر) طيب يا بن الحج حافظ (تتدخل عفت هانم لتلطف الموقف فهي تعرف مدى كره العمدة لنور وغيرته من تفوقه)

- عفت: خلاص يا عمدة سيب نور براحته (ينهض نور ليهم بالانصراف)

- نور: بالإذن يا هانم, أنا عندي شوية مذاكرة.

- العمدة: (بتعجب) في الإجازة؟

- نور: بحفظ ألفية ابن مالك عند الشيخ محمود.

- شوكت:(لنور) ح آجي معاك عاوز أحفظها.

ينصرف نور ومعه شوكت لكتاب الشيخ محمود، ويظل العمدة يتابع «نور» حتى يخرج، تزداد حسرته لأن «نور» ربما يكون محافظًا أو وزيرًا وهذا الجاه المنتظر لا قبل لابنه به, وخاصة أن مستوى ولده «شوكت» متواضع، كثيرًا ما كان العمدة يحلم أن يصبح ابنه طبيب القرية ليتكامل العلم مع المال والسلطة.

يتملك العمدة غضب عارم فـ«نور» يمارس نوعًا من الطب الشعبي في العلاج وكثيرًا ما كان يصف بعض

الوصفات للمرضى وتأتي بنتائج حتى تلك الجميزة محل سخريته كان نور يستخدم ثمارها لعلاج بعض الأمراض والغريب أنها تأتي بنتيجة جيدة، وكثيرًا ما كان العمدة يتساءل هل نور يمارس الدجل؟ أم تلك من موروثات الطب الشعبي؟

لقد شفيت زوجته عفت هانم من وعكة ألمت بها عندما أصابها سعال حاد ووصف لها «نور» شرابًا مغليًّا من ثمر الجميز في الماء، وقد تهكم طبيب القرية كثيرًا من تلك الوصفة، ولكن المفاجأة أنها شفيت عندما اتبعت تعليمات «نور»، كان العمدة في قرارة نفسه يتمنى فشل تلك الوصفة لكي يحطم صورة «نور» الأسطورية في ذهن ابنه «شوكت»، طار خبر شفاء زوجة العمدة في القرية على يد «نور» فزادت هيبته، وقد فسر الطبيب الأمر وقتها بأنه مجرد صدفة أو أن الشفاء قد تم كنوع من الإيحاء النفسي، ولكن مما لاشك فيه أن الارتباك أصاب طبيب القرية والعمدة معًا.

كان الشيخ «حافظ» يعلم مدى حقد العمدة على ولده، وكثيرًا ما كان يخشى أن تتحول تلك الغيرة إلى رغبة في الانتقام فهو رجل ماكر تتملكه خسة ورثها من أجداده الذين جاءوا إلى القرية حفاة عراة، جده الأكبر كان يعمل حدادًا ولكنه انخرط في عصابة كبرى لسرقة المواشي وبدهائه استطاع استثمار ما يسرقه في شراء الأرض ثم تقرب وقتها من حكمدار المنوفية، فأسند إليه الحكمدار مهمة جمع الضرائب من الفلاحين وفق نظام الالتزام في عهد والي مصر

«محمد على» باشا عام ١٨٣٠م, وبذلك استطاع الجد الكبير أن يستحوذ على أراضي الفلاحين بالمكر تارة والسطو تارة أخرى.

ترك الجد الأكبر آلاف الأفدنة ولكن قوانين الإصلاح الزراعي أعادت توزيع الأراضي المنهوبة على أصحابها من الفلاحين ولم يبق لدى العمدة سوى خمسين فدانًا باسمه، والباقي أرض إخوته وأقاربه فهو يقوم على زراعة كل تلك الأراضي رغمًا عنهم، وكما كانجده يحتال على القرية وينهب ثروتها، هو الآخر يحتال على أقاربه، فهم لا يكادون يحصلون إلا على الفتات من عائد تلك الأراضي، كل هذا التاريخ أمام عين الشيخ حافظ ولذا يخاف من العمدة ويرغب في قبول العرض حرصًا على حياة ابنه في مواجهة ظالم وأفاق لا قبل له به، ورغم ذلك كان يعلم أن «نور» لن يقبل وهو ما حدث بالفعل، كان «نور» حاسمًا في رفضه مؤمنًا بهدفه قاطعًا في رده.

رغم أن تمسك «نور» بالتعليم أثلج صدر العم حافظ إلا أن الهواجس ظلت تدور برأسه فهو يعلم بما عرفه عن العمدة من غلظة ودناءة أن الشر قادم، هذا الرجل ذو قلب مريض بالأحقاد على كل الناس، و لايتورع عن أي فعل.

٥- المصيف والشقاء

اعتاد «شوكت» وفي أغسطس من كل عامأنيسافر بصحبة أمه لقضاء ذلك الشهر بمصيف العائلة الخاص في شاطيء العجمي بالإسكندرية، ويصحبهما العمدة إلى هناك، ويقضي معهما أسبوعًا ثم يعود للقرية ويستكملا باقي الشهر بمفردهما ليواصلا الاستمتاع بالبحر والمياه الزرقاء الصافية والهواء العليل، فالشاطئ عام ١٩٧٦ كان هادئًا لا يوجد به زحام ويفضله بعض الأرستقراطيين من بقايا الإقطاع وبعض الأثرياء.

أما أهل القرية فلايعرفون ماذا تعني كلمة المصيف أصلًا، العمل المتواصل في القرية هو حياتهم، الرجال كالفرسان في الحقول يصارعون الطبيعة حتى تنفرج الأرض عن الأرزاق والنسوة كالشغالات بخلايا النحل لا يتوقفن عن العمل، يساعدن الرجال في مواسم الحصاد ويقمن بتربية الطيور فوق الأسطح، وخاصة الدجاج فهو سيد الطيور بالمنازل الريفية والبنات الصغيرات يشترين دودة القز ويتابعن نموها حتى تتحول إلى شرنقات تباع ليصنع منها الحرير الطبيعي والصبية ينتشرون في الحقول, الكل يعمل و ينتج.

غاية ما يتمناه الفلاح امتلاك جاموسة أو بقرة، فكل بيت مهما كان صغر حجمه أصبح يقتني جاموسة هي كل ثروة الفلاح، هي الحياة بالنسبة لمن يمتلكها، فكانوا يدللون الجاموسة أكثر مما يدللون أطفالهم

ويحرصون على إطعامها ولو باعوا أقواتهم، وفي ذات الوقت الذي يذهب فيه علية القوم لينتشروا على ضفاف المتوسط كان أهل القرية يقتحمون في الصيف أرضًا تسمى بطرح النهر، وهي عبارةعن مساحة كبيرة على هيئة مثلث منفرج الزاوية تبدأ رأسه بجنوب القرية قبل جميزة الشيخ «حافظ» الشهيرة ببضعة أمتار وتتسع تلك المساحة بين مجرى النهر وبين الجرف الكبير كلما اتجهنا نحو الشمال حتى تصل إلى أقصى اتساع ثم تنحسر المساحة حتى تتلاشى الأرض تدريجيًا في نهاية زمام القرية ليلتصق النهر بالجرف الكبير مرة أخرى.

تلك المساحة الهائلة أمامها جزيرة غناء في وسط النهر تزيد عن خمسين فدانًا،لا يسكنها بشر وكانت المساحتان بمثابة مرعى طبيعي حيث تنتشر بها الحشائش ونبات «السِعد» شديد الخضار، وكانت المراعي الكنز المجاني لَحيوانات الفقراء.

يقف خلف كل جاموسة فتى أو صبي أو امرأة أو رجل يراقبها وهي تأكل بسعادة غامرة، كأن الطعام ينزل جوفه، فهذا العشب الطازج سوف يضمن للأسرة وجبة لبن لذيذة في المساء والصباح، كان الرعاة يقومون بحش تلك الأعشاب وربطهما بحبل على هيئة حزمتين توضع فوق ظهر الجاموسة في رحلة العودة للبيوت عند المساء، وذلك حتى يضمن الفلاح لها وجبة إفطار مبكرة.

في مأساة الفقر المدقع كان بعض البشر يشاركون

الحيوانات في الرعي وحشيشة «السعد» كفيلة بتحقيق التوازن بين الإنسان والحيوان؛ ليكون نصيب البهائم ما فوق الأرض من مجموع خضري، أما ما تحت الأرض فهو من نصيب البشر، درنات حشيشة «السعد» صغيرة تغوص في عمق التربة بعض السنتيميرات، وحجمها كحجم حبات الفاصوليا البيضاء، ولونها أسمر داكن، الدرنات حلوة المذاق، طيبة الرائحة، وكانت عشر حبات من تلك الدرنات الصغيرة تسد رمق الفلاح حتى العودة، أما من يحيا منهم في رغد من العيش فيأكل بعض كسرات من الخبز كان يحضرها في منديل محلاوي مع هذه الدرنات.

حرارة الظهيرة في أغسطس حارقة وخوف الفلاحين على مواشيهم يدفعهم للنزول بهم في عرض النهر حتى لا يصاب الجاموس بأذى ويظل الفلاحون يرشون الماء ويدلكون بشرة الحيوانات برفق وحب، لم يكن أحد يهتم بحماية نفسه من الحرارة بالقدر الذي يوليه لجاموسته.

ومن لطف المولى أن أرض طرح النهر عبارة عن مزيج من تربة طفلية ورملية خشنة متشبعة بمياه النيل ويتصاعد منها هواء رطب منعش للبشر والحيوانات في آن واحد، لقد كانت تلك الرطوبة المتصاعدة تجعل هذا الشط يقذف بهواء منعش كأنه جهاز تكييف طبيعي، وفي ذات الوقت الذي كان فيه «شوكت» على شاطيء العجمي بشمال مصر في حضن البحر المتوسط فوق عوامته كان «نور» في عرض النهر يدلل جاموسته ويدلك جسدها بليفة انتزعها من نخلة أمام منزل «بشندي» في القرية.

يأكل «شوكت» في أفخم المطاعم ما لذ وطاب من لحوم وأسماك وفواكه بينما «نور» يأكل بعض كسرات الخبز ودرنات السعد، «شوكت» يشرب مياها معدنية مثلجة «ونور» يشرب من النيل حيث يحتسي الماء بكفيه حتى يشبعٍ، ورغم ذلك التباين والاختلاف كان كل منهما متعلقا بالآخر ويجمعهما حب من نوع نادر، «فشوكت» كان يتعجل العودة حتى يقضي باقي الصيف على ضفاف فرع رشيد بفتات من كسراتٍ الخبز مع «نور» فطعام الفقراء دائمًا ما يكون لذيذًا وله مذاق خاص.

بالقرب من جميزة الشيخ «حافظ» قرر «صقر» أن يستوطن على شط النهر ليكون بجوار حقل «غزلانة» الصغير، صنع كوخًا من الحطب والبوص ليستريح فيه مع زملائه الصيادين «شمروخ» «وأبو شنب»، فثلاثتهم غرباء ومن قرية مجاورة، اشتهروا بالإجرام، والكل يتحاشى التعامل معهم.

كانت القوارب الثلاثة في أثناء الاستراحة تربط بحبل مشدود على وتد بالشاطيء حتى لا يجرفها التيار فيدفعها الماء نحو الشمال، واعتاد الصيادون وضع عدة جوبيات.[1]على الشاطيء لصيد الأسماك ليجمعوا ما بها كل صباح لبيعه.

١ـ الجوبيات هي نوع من الشبك الصغير، ومصنوعة خصيصًا لصيد الأسماك، وهي عبارة عن شراك خداعية به بعض الأسلاك الدائرية ملفوف عليه غزل من خيوط مربعة الشكل، وبطريقة محكمة تسمح للسمك بالدخول ولا تسمح له بالخروج، وتوضع بجوار الشاطيء مباشرة في المساء ويجمع منها الصيد في الصباح الباكر

في مساء أول أغسطس عندما كانت «غزلانة» تهبط من فوق الجرف لإحضار الماء في إناء نحاسي يسمى «دست» لملء الزير أسفل الجميزة شاهدت تلك الجوبيات التي يصطادون بها الأسماك، دفعها الفضول أن تفحص ما فيها فأخرجت واحدة فوجدتها مليئة بالأسماك، لم تفكر طويلًا وأفرغت ما بها في الإناء النحاسي وصعدت به دون أن تكمل مهمة ملء الزير بالماء وعادت إلى المنزل وأعدت عشاء شهيًّا من السمك المشوي على صاج قديم.

طعم السمك لم يكن مألوفًا لدى «محجوب» و«غزلانة» فقد اكتشفا نوعًا من الطعام كان منسيًّا، وعلى الرغم من توافر الأسماك في النيل والترع لم يكن هناك وقت لصيده أو قدرة على شرائه، وكانت رائحة السمك تملأ الحارة ولم يكن معتادًا أن تنتشر تلك الرائحة؟ وبعض النسوة فسرن الأمر على أن «غزلانة» ربما كانت في طور الوحم.

عشقت «غزلانة» أكل السمك و«محجوب»وجد فيه ضالته، فقد كان يتلقى بحسرة مفاخرة بعض الزبائن بطعم الحمام ولحوم الضأن.

كانت عيون الفلاحين وهم يفترشون الأرض في انتظار دورهم للحلاقة يتحدثون عن أمورهم وأحوال القرية، كان حديثهم حفلات للسمر، يتبادلون فيها الحكايات والأحاديث والنوادر، فهذه الوجوه الشاحبة تبحث عن السكينة في البشاشة، وعن التسلية في الحكاوي المختلفة.

وأخيرًا وجد «محجوب» شيئًا يتفاخر به في تلك الجلسات، فكان وهو يفترش الغبراء يحلق شعر الفلاحين الملبد بالتراب والطين يذكر لزبائنه أنه من المحظوظين،لأنه من عشاق الأسماك.

كان يبارز بالأسماك أكلة اللحوم والفواكه، ليؤكد للجميع أنه يمتلك هو الآخر واقعًا يزهو به، كانت تلك المقارعات الصبيانية بالنعيم لدى هؤلاء المقهورين تتم بين من ذاق الأطعمة الفاخرة ولو مرة واحدة، فمن تذوق طعام الأثرياء يصبح فارسًا مغوارًا يصف للمحرومين تلك الأنواع من الأطعمة، فمن هو ذاك البطل الذي يحظى بقطعة لحم في عالم القحط والجوع والشقاء؟

ربما كانت مقارعة «محجوب» باهتة فالسمك في النهر والترع والمصارف لا يحتاج إلى عناء في صيده، وكانت مهنة الصيد مهنة من لا عمل له.

ورغم فقر القرية لم يكن بها لصوص سوى «مبروك»العرباوي والذي لم يكن يمتلك شيئًا يقتات منه، وبعد ضبطه عدة مرات وتسليمه للعمدة الذي قام بجلده حتى لا يعود لتلك الفعلة مرة أخرى، قرر صغار الملاك مساعدته في مواسم الحصاد مقابل عدم السرقة فكان كل صاحب حقل يعطيه بعضًا من الحبوب من الذرة أو القمح وكان «مبروك » العرباوي آخر العام يحصل على أضعاف ما يحصده أي فلاح من أرضه، وبعد توبة «مبروك» تحولت «غزلانة» في خلسة إلى لص آخر يسرق أسماك «صقر» وزملائه.

وتحت إلحاح «محجوب» طالبًا منها إحضار السمك، عاودت «غزلانة»السطو من جديد هو لم يسألها من أين تحضره؟ أو كيف تحصل عليه؟ وهي باتت مشتاقة لذلك الطعام، ولذا أقدمت على الأمر بهمة.

وتكررت سرقة الأسماك، وتملك الغيظ المكبوت من الصيادين الثلاثة، وقرروا مراقبة الشط بالتناوب لضبط اللص وقتله، وفي ذات يوم كان دور «صقر» في نوبة حراسة السمك، ولكنه قبيل الفجر ترك الحراسة، ولعب شيطان الخمر برأسه وقرر أن يذهب إلى»غزلانة» بمنزلها ليقضي باقي الليلة في أحضانها، دون مقدمات أو دون أن يفكر في العواقب حال انكشاف أمره فهو قد تعلق بها إلى حد الجنون.

في جنح الظلام دخل صقر حارة الخياط ووصل لدار «غزلانة» فالأبواب بالحارة لم تكن تغلق لشدة الأمان، تفحص المكان ودخل يحمل سلاحه الآلي فوق ظهره صعد إلى أعلى السطح فوجد زوجها «محجوب» يغط في نوم عميق.

هبط بشغف إلى غرفة «غزلانة» ودقاته قلبه تسبقه سريعة عالية، وعيونه الزائغة لا تكاد أن ترى أو تميز، يتحرك مرتبكًا متأرجحًا كأنه شرِب جرعة مضاعفةمن الأفيون، يتحرك كشيطان مكبلًا بالسكر والمجون والطيش مصممًا على نيل غرضه مهما حدث، فلم يعد يرى بخياله سوى تلك المرأة التي أقضت مضجعه[٢]،وأشعلت نيران رغبات ملتهبة في أرجائه، ولاسبيل أمام هذا

٢ - :قضت مضجعه:أي عذّبته، ألّمته

الذئب سوى النيل منها أو الموت كحشرة بين أحذية متهالكة إذا قاومت وصرخت وهرول الجيران لنجدتها.

٦ – السقوط

دخل «صقر» غرفة «غزلانة» مضطربًا، وظل لبرهة لا يكاد يميز، فتش عنها بعينه الكالحة في أرجاء الغرفة، فلم يجدها! تحرك كجرذ حقير يبحث عن بقايا فتات في منزل متهالك فلم يجد أثرًا لهذا الفتات أمام عينيه،تساءل كثيرًا بينه وبين نفسه بجنون الثور الهائج أين ذهبت تلك الفريسة؟ خرج بغيظ مكتوم يجر لوعة الحسرة كغراب ذليل حرم من نبش حفرة بها جيفة حقيرة، وعاد للنهر مهمومًا يندب حظه على النجاة من براثن الخطيئة.

عاد «صقر» إلي حضن الشط مكلوماً يرابط بسلاحه الآلي بين بركة من البردي والبوص الكثيف، يكاد أن يتطاير من وجهه المخيف شرر يرهب طيور السماء الجارحة من الاقتراب، فقد أقسم ليقتلن سارق السمك ليكون عبرة لمن يتجرأ على عرينه بحافة النهر.

والمفارقة العجيبة أنه في ذات الوقت الذي ذهب للبحث عنها، كانت شيطانته «غزلانة» تسابق الزمن حتى استقرت قرب أحضان النهر، فهي منذ الفجر تراقب الشاطئ لكي تنقض لصةً على أسماك اللصوص، لم يشعر قلبها الميت بنسيم الأمل المنعش البارد وهو يداعب الكون الفسيح بنضارة الصبح الجديد، كل منهما يود النيل من الآخر، هي تريد سرقة أسماكه وهو يريد سرقة كل ما يفوح من أنوثتها من أريج.

وقعت عين «صقر» على امرأة من الخلف وهي تهبط من منحدر الجرف وتقترب من النهر، ظنها في باديء الأمر امرأة جاءت لتملأ جرتها بالماء، وعندما شمرت عن ساقيها الغضتين الممتلئتين استعدادًا للنزول في الماء، أثارت غرائزه تلك السيقان الباسقة وذاك الخصر الممشوق، بعد بضع ثوان من المتابعة الملتهبة كانت المفاجأة أن تلك المرأة هي ضالته المنشودة، إنها «غزلانة» تتجه نحو «جوبية» السمك ترفعها لتفرغ ما بها من سمك في الأناء النحاسي الذي معها.

بشوق الظمآن للماء، وحرقة الملتاع وبجرأة المجرم الباطش، تقدم نحوها «صقر» ولكي يرهبها سحب مجموعة أجزاء سلاحه كأنه متأهب لإطلاق الرصاص، قفز بالقرب منها بجبروت الوحش الكاسر، ارتعدت «غزلانة» عندما سمعت حركة أجزاء السلاح فجأة، واستدارت لترى ما الخطب الجلل؟ فإذا بها تلمح «صقر» شاهرًا سلاحه يتقدم نحوها في غضب، وتنبعث من عينه نظرات الذئب الجائع الواثق من صيده المتمكن من فريسته، أبصرت حرارة اللهفة تتطاير من كل أرجاء جسمه. فحضور «صقر» المفاجئ أصابها بالارتباك والفزع، توقف عقلها عن التفكير صرخت خائفة مرتجفة:

- غزلانة:(تخبط يدها علي صدرها فيسقط السمك في النهر) يالهوي, صقر؟

- صقر:(بنبرة الملتاع) إنت يا حرمة اللي بتسرقينا من شهر؟

- غزلانة: آخر مرة يا خويا.

- صقر:مش ح تفلتي من إيدي يا حرمة.

- غزلانة: (بتوسل) أبوس إيدك.

- صقر: (ينظر إليها بنهم) بشرط واحد؟

- غزلانة: (بخوف) تحت أمرك بس بلاش تموتني.

- صقر: اخلعي هدومك.

- غزلانة: يا مراري يا فضيحتي كله إلا كده.

«صقر» يصوب نحوها السلاح الآلي، تحت الخوف وهول الصدمة تخلع ملابسها وهو يضع السلاح جانبًا ويتقدم نحوها بنهم شديد، لقد وجد ضالته، وفريسته تأتي إليه بنفسها، التقت عين رجل كالح بعين امرأة مرتعدة في أحضان كادت أن تشبه لحظة الموت ربما كانت الفرصة الوحيدة لدى«غزلانة» للفرار من الموت هي الفرار إلى الجنس والخطيئة, كلا الأمرين أحلاهما مر.

أوغلت امرأة كاملة الأنوثة في جحيم العلاقة الآثمة لتنهلٍ من ينابيع العسل المر، استمر الساقطان وقتًا طويلًا، ولم يكن «صقر» يريد أن يتركها حتى قرب الظهيرة, خرجت وهي منكسة الرأس دموعها تنهمر، مرتبكة، متوترة، متبلدة، كأنها بين السكون والثورة أو بين الواقع والحلم أو بين الموت والحياة أو بين المتعة والألم، هذا التضارب في الإحساس والمشاعر أفقدها التوازن أو حتى التفكير، لقد انتحر شرفها مقابل بضع سمكات ومازال صوت «صقر» ذلك الفحل في أذنها

كالجرس وهو يودعها ويغريها على العودة:

- صقر: في أي وقت تعالي، السمك كله تحت أمرك، بس تيجي بدري شوية.

- غزلانة: (وهي ترتدي ملابسها بسرعة خشية أن يلمحها أحد) تاني؟

- صقر: (بثقة) وتالت.

تنصرف «غزلانة» دون أن ترد بكلمة واحدة وتصعد حافة الجرف بالكاد بعد أن أنهكها صقر وتعود إلى بيتها محطمة ذليلة منهارة وألقت السمك دون اهتمام ودخلت غرفتها تنتابها رعشة عاد محجوب إلى المنزل ليجدها في حالة إعياء، لم يكترث بها أو بسبب رعشتها، فكل ما يشغله فقط أن تنهض لطهي السمك.

لم تلق له بالاً، ولم ترد عليه أو تتحرك من نومتها فهي مازالت لا تصدق ما حدث، وبلا مبالاة قام محجوب هو بعمليه الشواء من تلقاء نفسه، فهو لا يفكر إلا في ملء معدته من الطعام، كانت رائحة الشواء تسمم أحشاءها فهي لم تكن تدري أن نهاية هذا الطريق هي الخطيئة، انهارت باكية بصوت مخنوق دون أدنى اكتراث من محجوب بأمرها، فهو منهمك في أكل السمك ولا تكاد تنضج واحدة إلا التهمها التهامًا ثم أتبعها بالأخرى وبعد أن شبع خرج دون أن يسألها عن سبب ألمها أو حتى بكائها.

مرت الليالي واحدة تلو الأخرى و«غزلانة» حالتها تسوء ومن حولها يظنون أن ذلك من آثار الحمل وبعد أسبوع عادت تتحسن من جديد ولكن بعد أن انكسرت

حمرة الخجل التي كانت تكسو وجهها، ومع هذا التحسن مازال محجوب يلح عليها بضرورة إحضار المزيد من السمك فهو تعود عليه، ولا يعلم الثمن الذي دفعته زوجته من شرفه المكلوم.

ذلك الإلحاح جعلها تشعر بأنها تعاشر خنزيرًا في منزلها فليس هذا الكائن برجل، فهو لا يهتم بها أو بآلامها أو حتى مصدر الطعام الذي يأكله؟ ألم يسأل نفسه من أين تأتي له بذلك؟ فقد كان دوره هو الأكل فقط، ربما برود هذا الزوج الكالح خفف آثار شعورها بالذنب، بل إن فحولة صقر وقوته جعلتها تقارن بين هذا وذاك، انقطعت شهرًا كاملًا عن الذهاب إلى الشط وكان صقر ينتظر في كل يوم على أمل أن تعود فقد تعرف على امرأة كاملة الأنوثة ممتعة إلى أقصى درجة، فهو قد مارس السقوط كثيرًا ولم ير أمتع من «غزلانة»، لقد ألهب مشاعر رفيقيه أبو شنب وشمروخ بوصف جمالها، وهذا الوصف جعل ثلاثتهم يعقدوا العزم على المشاركة في الوليمة ولكنها لم تأت بعد.

بجرأة الفاجر قرر «صقر» أن يقطع حرارة الانتظار بالذهاب إلى «غزلانة» في بيتها بالقرية، وقد مهد لذلك بأن تعرف على زوجها «محجوب» فمنذ بضعة أيام وفي نفس الكوخ الذي عقرت فيه «غزلانة» أدلف زوجها «محجوب» في نفس مقعدها ليشرب الشاي مع سيجارة محشوة بمخدر الخشخاش، وقد نجح الوغد في السيطرة عليه ببضع أنفاس مخدرة، وأصبح الزوج هو القنطرة التي يمر من فوقها الذئب كي يقصف زوجة الأحمق بنيران فاجرة، وتصور الذبيح في عالم الأفاعي

أنه في مأمن من اللدغات، في حين أن السم في أوصال زوجته كالأمواج المتلاطمة.

وفي اليوم التالي ذهب «صقر»إلى منزل «غزلانة» بحجة حلاقة شعره واستقبله «محجوب» بحفاوة الأَبْلَه، وبمزيد من الإغراء وعده «صقر» بأنه سوف يدفع ثمن الحلاقة وجبات سمك، أثلج هذا العرض صدره، وبعد أن أتم الحلاقة انصرف، ولم تمض برهات حتى دخل محجوب يحمل بشرى الصفقة المشئومة لزوجته، وهي تحاول أن تدفعه لقطع تلك العلاقة مبررة له أن التعامل مع مجرم مثل صقر غير مضمون العواقب، ولكن زوجها يتحرك خلف بطنه ولا يفكر في أي عواقب، وألح عليها بضرورة الذهاب في الصباح الباكر لإحضار السمك.

هذا الإلحاح كان غاية ما يصبو إليه «صقر»، فقبل أن يخبرها الزوج كانت «غزلانة» تعلم سبب الزيارة، وتراقب الموقف وتتلصص من الداخل كي تسترق السمع، هي في حيرة من أمرها، وقضت ليلتها بين التردد والرفض فهي تعلم أن «صقر» يريدها هي، وبين اللامبالاة والرجاء دفعها الغيظ من تبلد زوجها ووطأة الفقر إلى الذهاب، هذه المرة كانت تدرك جيدًا أنها ستقضي ساعات ساخنة وملتهبة في أحضان «صقر» رويداً رويدًا وجدت نفسها تستسلم للفكرة، وعندما وصلت استقبلها «صقر» بترحاب شديد بدد خجلها وأزال حاجز الرهبة، وجلسا يتسامران ليمطرها ذاك الوحش الكاسر بغزل فاحش تارة وكلام رقيق تارة أخرى لم تعتد على سماعه من زوجها من قبل، ذلك المجرم يستطيع فتح قلوب النساء ودغدغة مشاعرهن

وقد تمرس على ذلك من قبل، بدأ اللقاء الحلو المر، وبعدها تكرر الأمر عدة مرات.

وبعد أن اطمأنت «غزلانة» لعشيقها سمحت بأن يشاركه في الوليمة «أبو شنب» و «شمروخ»، لقد تعودت تدريجيًا على هذا الأمر حتى تلاشى وخز الضمير عندها تمامًا، هكذا دفعت للسقوط دفعًا بسبب جموحها وتبلد زوجها حتي أصبحت عاهرة بامتياز.

كانت «غزلانة» تدرك أن نهاية العلاقات الآثمة فاجعة أو كارثة كبرى؛ وخاصة إذا كان الأمر يتعلق بالشرف، فهي تتذكر كل يوم حكاية زوجة «عطوة الحداد»، هذا الرجل كان يقوم بصناعة الفؤوس والمناجل وكل الأدوات التي يستخدمها الفلاحون في الزراعة، والسكاكين التي تستخدمها النسوة في الذبح، وكان يقوم بذلك العمل على قارعة الطرق في قطعة أرض بور بين حافة جرن واسع وبين محطة القطار، وكانت زوجة «الحداد» امرأة جميلة شغلت غفير المزلقان فكان كثيرًا ما يتودد إليها بكلمة الغزل حتى استطاع إغواءها ونشأت علاقة بينهما استمرت في طي الكتمان حتي ضبطها زوجها في أحضان عشيقها فقام «الحداد» بربطهما عرايا واستدعى والد زوجته، وحضر الأب ليستلم ابنته مربوطة بالحبال ثم ذبحها بسكين أمام أهل القرية دون أن يتدخل أحد، وقام «الحداد» في نفس اللحظة بقتل عشيقها غفير المزلقان بأن همش رأسه بعتلة حديدية، وعلى الرغم من أن المجتمعات المغلقة لا تغفر تلك الزلة مطلقًا، كانت «غزلانة» لا تبالي بمصير امرأة الحداد.

ورغم أن تلك الواقعة المفجعة كانت دائمًا تجعل النسوة تدق ناقوس الخطر لتحذر بناتهن، ولكن الغريب أن «غزلانة» لم تجد رهبة في الأمر كما كانت تشعر من قبل، ولم تعد تردعها تلك الأقصوصة الدموية كما كانت ترعبها من قبل، وسقطت رهبة الخوف تحت سكرات اللقاءات المتكررة مع «صقر» ورفاقه، فهي قد فقدت حاسة الرهبة، بعد أن وضعت حملها وأنجبت طفلها الأول «جابر» وتعافت من آلام المخاض كانت هي أكثر لهفة وحرصًا على حضور ولائم الإثم والرذيلة، لقد أدمنت الأمر وخلعت ثوب الحياء عن نفسها.

لم تكن القرية تحتمل دماءًا جديدة تراق على شرف خائنة أو منحرفة مرة أخرى، فتلك النهاية المأساوية تلصق العار بالأهل والولد، وتظل تطارد النسل إلى مالا نهاية فعار فقدان الشرف لا تمحى آثاره في القرى، ويورث لتحمل أوزاره الأجيال الجديدة بلا ذنب أو جريرة.

هل القرية في انتظار كارثة مروعة أخرى؟ لم تكن النشوة تسمح لغزلانة بأن تفكر في العواقب لم تكن رائحة السمك التي تنبعث يوميًا من منزل محجوب سوى وشاية بين شفاه النسوة حول شكوك تتأكد لدى البعض، والبعض الآخر يرفض الخوض فيها دون علم، وكلما أشرقت الشمس أو غربت تنتشر مع رائحة الشواء الظنون والهمسات والاستعاذة بالله من شر مستتر قد يحل بالقرية، هل ستكرر حادثة زوجة «الحداد» أم أن الأمر سيطال القرية كلها؟ لم تكن النسوة تجرؤ على

طرح تلك الهواجس على أزواجهن لعلمهن بخطورة الأمر فمثل تلك الأمور لا تؤخذ بالظنون، ترى كيف تنتهي تلك العلاقة وما هو مصير «غزلانة».

٧ – أحلام الملائكة

كان «الحلم» بالقرية بلا معالم أو هوية، والحياة تسير بطيئة تقليدية، كن نسوة بجلاليب سوداء، تتحركن في الصباح الباكر فوق أسطح المنازل والشوارع والحقول كأنهن كتائب جيش يحارب الجوع بالعمل، أما البنات فترتدين جلاليب مزركشة بألوان زاهية وعلى رؤوسهن غطاء أحمر منقوش بالترتر يسمى «شقة» تتدلي منها للزينة كرات صغيرة بيضاء وخضراء وزرقاء تتراقص مع إيقاع خطوتهن، تتحرك الفتيات بخفة كأنهن ورود يتناثر منها عبق السحر ممزوجًا برحيق الأنوثة، وتأتي الذكور لتحوم حول تلك الإناث الغضة البضة كالفراش الذي يحلق هائمًا من شدة الظمأ ليبحث عن رحيق المرأة كي يرتوي من نهر الحياة، فكل من خط شاربه يريد أن يقتنص أنثاه، كنواة لأسرة جديدة، أما دور الرجال فهو تحريك تلك المنظومة من خلال ولاية الرجل التي لا تقبل منازعًا، فهو الآمر الناهي، وسلطان الأسرة المطاع، كأن الحياه تجمدت عند هذا الحد، فالطعام والزواج هما محور الأفكار ومنتهى الأحلام.

بيد أن نور حرك هذا السكون بأحلام الفتيان المفعمة بالبراءة، وقد بلغ الحلم لدى الكادحين بغد مشرق عنان السماء، فالأحلام هي جذور الأمل التي تشق الأرض مع كل شروق، ليصبح الحلم أغصانًا تنتظر الربيع يخصب

أزهارها لتطرح ثمارًا ذكية ينتظرها الجوعى وهم على حافة الموت.

مرت الشهور والسنوات وأصبح «نور» بالصف الثالث الثانوي بمدرسة المركز، يذهب يومياً ويعود مترجلًا لمسافة تربو على ٤ كيلو مترات، فعناء رحلة الذهاب والإياب للمدرسة يستغرق ثلاث ساعات، في حين كان صديقه«شوكت» يذهب «بالكاريته» وأقران «نور» يذهبون بالدراجات، وكثيرًا ما طرحت أمه «فوزية»علي زوجها ضرورة شراء دراجة لـ «نور» أسوة بزملائه، فالفتى يبذل مجهودًا مضنيًا في المدرسة والحقل، فقبل المدرسة وفي الصباح الباكر يقوم بحش البرسيم وتجهيز وجبة إفطار للجاموسة قبل أن يفطر هو، ليتيح لأبيه وأخيه أن يذهبا للعمل في غيط «الوسية».

وفي رحلة العودة من المدرسة يذهب«نور» للحقل مرة أخرى لتجهيز وجبة العشاء للجاموسة ثم يعودبها إلى المنزل، ثم يسهر بعدها يحارب الظلام بضوء لمبة بدائية يطلق عليها الفلاحون «الصاروخ» وهذا الصاروخ ليس لقصف الطائرات، بل هو مصدر للضوء الأحمر المعتق بالدخان الأسود الكثيف، الذي ينبعث من أعلى عنق اللمبة عبر فتيل من قطن مغموس في«الكيروسين»،وكان «صاروخ» البؤساء يصنع من علب الصفيح الصغيرة المخصصة للمشروبات والأغذية المحفوظة، والتي يجلبها الفقراء من قمامة المدينة، وكثيرًا ما كان الهواء أو زخات المطر في الشتاء يطفئان هذا «الصاروخ»؛ لذا كان حلم دخول

الكهرباء للقرية هو الأمل الذي يسعى «نور» لتحقيقه عبر مذكرات جمع عليها توقيعات وبصمات الفلاحين للتعجيل بإجراءات دخول الكهرباء إلى بلدته.

اعتاد «نور» أن يلتقط المعلومات الظاهرة والباطنة في صفحات الكتب، ودائمًا ما كان يباغت المدرسين بأسئلة ملتهبة تربك بعضهم أحيانًا، وتتجاوز حدود المقرر أحيانًا أخرى، «نور» معجزة القرية والمدرسة والحياة في آن واحد فهو طفل بدرجة رجل يسهم في أعمال الحقل والمنزل بجانب التعليم ورغم حبه لـ«شوكت» كان دائمًا يرفض العودة معه على «الكاريته» فهو يشعر بحقد العمدة وكان يمتلك نزعة قوية للتحدي فهو يريد أن يعتمد على ذاته وإمكانياته المحدودة، وكان في أحيان كثيرة يستغل رحلة الذهاب والإياب إلى المدرسة مترجلًا في المذاكرة على ضوء النهار قبل أن يعود ليكابد ظلمة الليل البهيم.

عقدت أسرة «نور» النية على أمرين الأول هو شراء لمبة كروسين للإضاءة «نمرة خمسة» [٣] وقد تحقق هذا الأمر لسهولته، أما الآخر فكان شراء دراجة للفتى تمكنه من اختصار وقت الذهاب للمدرسة في ساعة واحدة يوميًا بدلًا من ثلاث ساعات، واستطاعت الأسرة أن تدخر بعض الجنيهات، والباقي من الثمن سوف يتم تدبيره عندما تلد الجاموسة ويباع وليدها في السوق،

---

٣ - هي لمبة زجاجية متوسطة الحجم تعمل بالكيروسين كانت تستخدم في الإضاءة بالريف المصري قبل انتشار الكهرباء، وتعطي إضاءة مناسبة كانت تعد وقتها جيدة

وقد حدد جساس[4] المواشي موعد ولادة الجاموسة في نهاية ديسمبر، وسيكون الوليد جاهزًا للبيع فيإجازة نصف العام الدراسي، عندئذ سيتم شراء الدراجة بعد الانتهاء من امتحانات الفصل الدراسي الأول.

تعود «نور» أن يذهب يوم الجمعة لزيارة الغفير «بشندي» بعد الصلاة مباشرة فتلك الأسرة جعلت منه صديقها الوفي وتستشيره في كل الأمور على الرغم من صغره، وكانت «عناكب» بعد حملها تتعمد النظر لـ«نور»كثيرًا حتى يكون الطفل القادم في تفوقه وذكائه، تستدعيه كثيرًا لتتوحم عليه، فالنسوة بالقريةيقدسن فكرة الوحم.

وأصبحت تلك الصداقة محل تندر لأهل القرية فهذا الزوج البخيل لا يعرف الكرم إلا مع نور وهذه الزوجة العبوس لا تضحك إلا في حضوره وفور دخول «نور» تضع «عناكب» الطعام وتجلس الفتى جوارها وتناوله أفضل الطعام سواء كان لحمًا أو بيضًا أو فطيرًا ويظلان هكذا في سمر وضحك حتى موعد العصر، وعلى الرغم من أن «نور» لم يذق شربة ماء عند صديقه «شوكت» ابن العمدة إلا أنه كان يأكل ويشرب في بيت «بشندي» الفقير كان يشعر أنه يتناول مشاعر الحب الأبوية في كل كسرة خبز، وكان «بشندي» ذلك الجلف معه أرق من الطيور الحالمة.

كانت أحلام الصبية آنذاك ترتفع لتلامس السحاب، الكل يريد للقرية أن تنهض وتتقدم، وكان كلام «نور»

---

٤ - الجساس بالقرية: هو من يقوم بمتابعة مواعيد الولادة للجاموس والأبقار.

عن رفع مستوى المعيشة وتطوير الزراعة بسلالات حديثة يلقى رواجًا واستحسانًا من الجميع، فالأمل يملأ القلوب الخضراء والهمة تضع أولئك الصغار في مصاف الرجال، وكان الفضل يرجع لـ«نور» الذي زرع فيهم تلك الآمال العريضة، ذاك الفتى الثائر على التخلف الحالم بالنهضة صنع لنفسه من بني جيله أصدقاء كثرا، يحلمون مثله، ويغوصون في أعماق الحلم، ومن هؤلاء الأصدقاء الفتى «رجب جودة» ابن شيخ البلد الذي دائمًا ما كان يتمنى أن يصبح مهندسًا كي يخطط وينسق ويبني بيوت القرية كلها بالطوب الأحمر والأسمنت وتصبح قريته من أجمل القرى.

وكان الفتي «حمدي سويلم» يحلم بأن يصبح مهندسًا زراعيًّا كي يشرف على زراعة القمح ويوفر الغذاء للجميع، كان همه هو العناية بالقطن ومكافحة الدودة التي تهدد المحصول الذهبي للقرية ، فهي ترهق الفلاحين في مقاومتها يدويًا، وأيضًا كانت هيبة المهندس الزراعي في القرية وقتها لا تقل عن هيبة العمدة فهو الخبير والمستشار لكل الفلاحين، وهو المرحب به أينما حل.

كانت الدولة وقتها تصرف للمهندس الزراعي موتوسيكلًا يطلق عليه الفلاحين اسم «سيد كار» وكان هذا الموتوسيكل بثلاث عجلات تخصص مديرية الزراعة له سائقًا، وكان حجمه الصغير يسمح له بالمرور عبر الطرق الصغيرة بين الحقول التي كان من الصعب أن تستوعب سيارة.

وكان«سيد كار» عبارة عن موتوسيكل عادي مدهون كله باللون الأحمر وملحق به صندوق جانبي مستطيل ومستدير في طرفيه، نصفه الخلفي مفتوح به مسند للظهر والنصف الآخر مغطى بصاج وهذا الصندوق محمول على عجلة توازي العجلة الخلفية ويمتد إلى الأمام بما لا يسبق العجلة الأمامية ويجلس المهندس الزراعي على مقعده بما يسمح له أن يكون مضطجعًا يمد رجليه إلى الأمام في الجزء المغطى في منظر مبهر يضفي عليه شيئًا من العظمة كأنه قادم من عبق الماضي، هذا المنظر الأسطوري في أعين الصبية والفلاحين وقتها كان أقصى درجات الرفاهية فالمحظوظون بالقرية لا يركبون سوى الحمير أو البغال أما المهندس الزراعي كان حين يهبط أو يتحرك يكون محط أنظار الجميع وموطن ترحابهم.

وفي المقابل استمرت الأحلام الفردية لتصارع الأحلام الكلية في حلبة الحياة، فكان من بين الحالمين الذاتيين الفتى«شاهين الوزان» ابن بقال القرية كان حلمه بالمال والنفوذ، لا يسمح له إلا أن يرى ذاته فقط.

بيد أن«نور» كان يمتلك ناصية حلمه المتكامل والذي يلتقي مع أحلام الآخرين من أقرانه، كان يحلم بأن يكون طبيبًا ليعالج أهل قريته، وتمنى«شوكت» ابن العمدة هو الآخر أن يكون طبيبًا مثل «نور» هو يريد أن يكون مع صديقه في أي طريق يسلكه، وهذا الارتباط لم يكن تبعية عمياء أو تقليدًا أجوفَ، بل كان علامة من علامات التلاقي بين الأرواح الطاهرة.

توغلت أحلام «نور» ورفاقه في أرجاء القرية، وتولد لدى المرضى المثخنين بالجراح أمل في المستقبل، فسوف تمتلك القرية طبيبًا يمسح الدموع ويحارب المرض الشرس، فتارة وباء الكوليرا يفتك بالكبار والشباب والأطفال، وتارة مرض البلهارسيا يأكل الأكباد، ذاك الفتى اليافع سوف يقضي على المرض والجهل، كبرت آفاق الحلم لدرجة لا حدود لها، وبرز ذلك جليًّا عندما كانت العجوز «أم محمد» تعاني مرض الاحتضار الأخير، آنذاك عرض عليها أبناؤها إحضار طبيب المركز فكان ردها:-

- أم محمد: ح أصبر شوية بكره «نور» ابن «فوزية» بنت عمي يبقى دكتور وييجي يعالجني ببلاش.

- الابن محمد: نور إيه بس يا أمه؟ لسه قدامه عشر سنين على بال ما يبقى دكتور، أنا نازل المركز أجيب دكتور حالًا.

- أم محمد:(بغضب) قولتك يا ابن المركوب ما حدش ح يعالجني ويكشف عليه إلا نور ابن فوزية، إياك تطلع من باب الدار لتبقى وقعتك منيلة بنيلة.

- الابن محمد:(بعين دامعة) حاضر يا أمه ربنا يشفيكي.

- أم محمد:(مبتسمة) ربنا هو الشافي وأنا رامية تكالي عليه ياوله (محذرة إياه) لما ربنا ياخد الأمانة مش عاوزة حد يعيط عليه سامع يا محمد،

وصيتي أن «نور» ابن «فوزية» بنت عمي ييجي يقرالي سورة «ياسين» على تربتي، أظن دي مش عايزاك تستني عشر سنين.

المفارقة أن ملك الموت كان في ذات اللحظة يطرق بابالعجوز طالبًا روحها ليخلصها من عالم الشقاء، فعزرائيل لن ينتظر عشر سنوات حتى تري العجوز «نور» طبيبًا، ولن يستطيع أطباء العالم التدخل في عمله فهو قاهر الأطباء قبل المرضى.

عندما فارقت العجوز «أم محمد» الحياة نفذ «نور» وصيتها وقرأ على قبرها سورة «يس» فكلمات العجوز ألهبت حماسه، كان يبكي فقره وفقرها، فهو يعلم أن ذل الحاجة مرير، ويعلم أن الفقر هو الشعور بالعجز.

كان المدرسون في القرية يشحذون همة «نور» ويلهبون حماسة الفتيان لتغذية ثقافتهم بالمعارف والمباديء، في المدرسة الإعدادية أدرك مدرس اللغة العربية «عبد الحميد مندور» أن حلم «نور» هو التفوق، ولكن كيف يتثنى له مساعدته بطريق غير مباشر؟ كان الحل أن يبتكر مدرس اللغة العربية هو وزملاؤه جائزة شهرية أطلقوا عليها جائزة الأوائل، ودفع كل مدرس من راتبه ربع جنيه ليستقر كل شهر جنيهان في جيب «نور»، وقد حصد الفتى هذه الجائزة في الشهر الأخير من نصف العام الأول واشترى بها ما يلزمه من كتب وأقلام.

بينما كانت الأحلام الخضراء أمام أعين الفتيان تحلق كالفراشات الهائمة في القلوب الزكية كان

قلب «فوزية» يشعر باللهفة والخوف على«نور»، فالهواجس تنتابها دون سبب معروف، ولم تكن تعرف ممّ تخاف؟ فـ«نور» فتى مهذب محبوب لا يؤذي أحدًا بلفظ أو إشارة، وكثيرًا ما كان يساعد زملاءه ويشرح للأطفال الصغار من طلاب الصف السادس الابتدائي بعض الدروس في الحساب واللغة العربية، وتارة كان يتولى مهمة رفع أذان الفجر بمسجد القرية حال تخلف المؤذن عن إقامة شعائر الصلاة أو يخطب في صلاة الجمعة، وتارة ثالثة كان يقرأ للفلاحين خطابات الجنود إلى ذويهم، فهو شعلة نشاط وطاقة وخير.

ما خطب «فوزية» وممّ تخاف عليه؟ ولماذا تضرب تلك الكوابيس رأسها لتوقظها من النوم مرتجفة لتهرول نحوه في الغرفة المجاورة وهو نائم على الحصيرة لتطبع على وجهه قبلة أم رؤوم، فيرفع«نور» رأسه برفق من فوق الوسادة ويستيقظ مبتسمًا يفتح عينيه كأنه يرحب بها ثم يرد لها القبلة ثم يعود ليغط في نوم عميق من جديد، ما سر ذلك القلق وهذا التوتر؟ عادةً قلب الأم يشعر بما لا يشعر به أحد، ربما كرهت «فوزية» سعة السكن في هذا اليوم فقد كان ينام معها في نفس الغرفة قبل شراء الدار المجاورة، دون أن تدري تجد نفسها تنام بجواره وتضمه لحضنها ولا تغادر الغرفة إلا في الصباح، «فوزية» تدرك مدى غيرة العمدة من ولدهاولا تستبعد أن تكون الغيرة دافعًا لإيذائه.

لم تستطع «فوزية» أن تتخلص من مشاعر الخوف والهلع على «نور» وظهر ذلك جليًا في تصرفاتها

وشرودها وعبوسها، مما جعل عدوى الخوف تنتقل إلى الأب «حافظ» ولكنه كان لا يظهر ما يعتريه، ويحاول أن يطمئن زوجته، ويقول لها إن العمدة رجل شرير حقًّا، ولكن شره لا يمكن أن يصل لـ «نور» فهو لم يؤذه أو يصنع له شيئًا، وكذلك هو أخو ولده في الرضاع وصديقه الوحيد. ترى هل تلك مجرد هواجس؟ أو ماهو ما سر هذا الخوف وذلك الهلع؟

٨- الجريمة

في فجر يوم الجمعة الأخير من إجازة نصف العام بعد صلاة الفجر خرج الشيخ «حافظ» وزوجته «فوزية» إلى سوق الجمعة فقد حان وقت بيع العجل الجاموس الصغير بعد أن مر على ولادته أربعون يومًا، وسوف يشتريان بثمن البيع دراجة لـ«نور»، كان سوق المواشي عبارة عن مساحة كبيرة من الأرض المتربة تغوص أقدام المارة فيها،وكان يضم كل أنواع المواشي من جاموس وأبقار وجمال وحمير وماعز وأغنام، ومع كثرة الزحام تتداخل أصوات الحيوانات ومع أصوات الباعة بعضها البعض، فهناك تشاحن بين الزبائن على السعر، وهنا صوت صراخ بائع سرقت حافظة نقوده، وآخر يزهو بحسن الثمن، وآخر ينعي نفسه للبيع بثمن بخس.

في فجر ذلك اليوم كانت «عناكب» تستقبل آلام المخاض، وبعد الصلاة ذهب «بشندي»و«نور» للداية «محبوبة»، كانت«محبوبة» امرأة داكنة رفيعة وطويلة وسليطة اللسان، فهي أرملة تجاوزت الخمسين من عمرها مصدر دخلها توليد النساء، ومرافقة البنات ليلة العرس وتهيئتهن لاستقبال العلاقة الزوجية بثبات ولطف، وكان مصدر دخلها هو نقطة أهل المولود في حفلات السبوع الفقيرة، أما في حفلات العروس والزفاف يكون نصيبها الكثير من الطعام والسكر والكعك والصابون وغيره من الخيرات.

تعودت «محبوبة» أن تغلق بابها بإحكام خوفًا على ابنتها الوحيدة «حمدية» فهي قد استطاعت أن تشتري لها كل مستلزمات الزفاف وتدخر بعض الجنيهات للزمن، ومع صوت الأذان جاء «نور» وبشندي يطرقان بابها بعنف وقوة، استيقظت «محبوبة» تعلو وجهها بسمة فهذا العنف في الطرقة بشير خير، فهذا الصباح سوف يشهد مولد نفس جديدة سوف تهبط إلى القرية.

حركت «محبوبة» ابنتها «حمدية» بقوة وتعجلت لتوقظها كي تغلق وراءها الباب فتنهض الابنة متكاسلة:

- حمدية: خبر إيه يا أمه

- محبوبة: فزي يا بت اقفلي الباب ورايا يظهر فيه حالة ولادة مستعجلة

- حمدية:(وهي في حالة الكسل) هي النسوان مش ح تبطل خلفة.كل يوم أصحى من النومعلى ملى وشي أقفل وراك الباب

- محبوبة: فزي يا حزينة يا خم النوم اقفلي الباب لحد يخش يقشش الدار.

نهضت«حمدية» وأغلقت الباب خلفها ثم عادت لتستلقي على السرير المبني من الطوب اللبن علي هيئة مصطبة طينية عرضها متران وطولها متران وعليه مرتبة من القطن حصلت عليها الأم «محبوبة» من بيت العمدة بعد احتفال السبوع لـ«شوكت» ابن العمدة.

وانطلقت «محبوبة» مع «نور» جارها لنجدة «عناكب»وأمامهما بشندي يشق الطريق بهمة وحماس وعند المنزل دخل «بشندي» والداية واستأذن «نور» لكي يذهب إلى الحقل ليجهز وجبة برسيم للجاموسة في الصباح الباكر.

في ذات التوقيت مع الفجر خرجت «غزلانة» إلى النهر كالعادة لكي تحضر السمك، وتلتقي في خلوة محرمة مع «صقر»، ومع أول ضوء كان «نور» قد وصل إلى الحقل وجلس بجوار جذع شجرة الجميز لبعض الوقت حتى يتطاير الندى من فوق عيدان البرسيم ليقوم بحشه، فقد اعتاد أن يظل يذاكر لبعض الوقت في هذا المكان حتى تشرق الشمس ويتطاير الندى، ولكن في إجازة نصف العام يصطحب معه مصحفًا صغيرًا ليحفظ منه القرآن ومسبحة يتلو عليها أذكار الصباح، وفي ذات الوقت كان زميله «شاهين الوزان» يقبع بكوخ أبيه على بعد بضعة أمتار ينتظر الشروق لإطعام جاموسة «الوزان» لأول مرة في حياته، مقلدًا لـ«نور».

وضع «نور» القرآن جانبًا بعد أن أتم قراءة الجزء الأخير، وأسند ظهره على جذع شجرة الجميزفي مواجهة صفحة النهر الخالد، خيٍاله يجول بآمال تسبق تدفق الماء الذي يجري مختالًا بالنهر، في لحظة الشروق تخضب الشمس الشاطئ بلون الذهب الرائع كما تخضب أحلام الفتي الأيام بالأمل، يصعد الهواء الطازج من النهرٍ ليعانق الأماني التي تنطلق من قلب «نور» مقصبةً بالحب ومطرزةً بالبراءة.

شعر «نور» بالعطش فهبط يغترف الماء بين يديه، ليرفعه إلي فيه لكي يشرب، فيتسرب نصف الماء من بين الأصابع كسلاسل الفضة ليسقط في النهر ثانية، بعد أن اغترف الماء عدة مرات أحس بالشبع، ثم توضأ لكي يصلي ركعتين شكرًا لله على تفوقه، فرغ من الوضوء استدار للصعود ومر بجوار «خص» صنع من الحطب اليابسِ والبوص عرف أنه مملوك لـ«صقر»، سمع أصواتًا وهمهمة لفتت انتباهه، فجأة وقعت عين «نور» على فتحة الكوخ التي أمامه فوجد «غزلانة» تمارس البغاء مع «صقر» ويجلس على مقربة منهما «أبو شنب» و«شمروخ» للرقابة وتبادل الأدوار.

جن عقل «نور» وهو يرى البغاء والمجون ولا يدري كيف يتصرف، تقابلت عين «غزلانة» مع عين «نور» مباشرةٍ فوجدته يتابع الموقف في دهشة،ثم انصرف مذهولًا مما رآه، فانتفضت مذعورة تدفع «صقر» من فوقها وتلملم ثيابها تصرخ بصوت مكتوم:

- غزلانة: يا لهوي يافضحتي ابعد كده يا صقر.

- صقر:(بدهشة) فيه إيه يا غزلانة؟

- غزلانة: نور ابن عم حافظ شايف كل حاجة.

- صقر: فين هو؟

- غزلانة: قدامك أهه، يا مراري ح أموت مقتولة زي مرات عطوة الحداد.

ينهض «صقر» مرتبكًا والشر يتطاير من عينيه، مذعورًا كفأر حقير فاتكًا كوحش كاسر، نظر إلى

صديقيه «شمروخ» و «أبوشنب» نظرة تحرض على الغدر بالفتى، ليتبعانه للإمساك بهقبل أن يصعد حافة الجرف و«غزلانة» تصعد وراءهما ببطء وهي في رعب بالغ، يلتفت «صقر» إلى «نور» بعد ما لحق به بصعوبة بالقرب من الجميزة، ويكلمه بغلظة:

- صقر:إيه اللي مخليك قاعد هنا يا ولد؟

- نور: (بتعجب) أنا قاعد في أرضي! وبعدين إنت بدل ما تسألني إيه قعدك هنا اسأل نفسك إيهاللي بتعمله ده؟

- شمروخ:(يقترب شمروخ منه ويجذب ياقة جلبابه) باين عليك قليل الأدب ولسانك طويل

- أبو شنب: اتفضحنا يا رجالة على إيد حتة عيل(في ذات اللحظة تكون «غزلانة» قدوصلت إليهم وهي مرتبكة وتنظر إلى «نور»)

- نور: (في عتاب وحزن) كده يا غزلانة؟

- غزلانة: يا فضيحتي يا مراري رحت في داهية يا غزلانة.

كان الصيادون يدركون أن مصير من تخطئ في القرية القتل، راودت «صقر» فكرة التخلص من «نور» فتقدم وصفعه على وجهه وأخرج مطواة واتجه نحوه ولكن «أبو شنب» حاول منعه:

- أبو شنب: ده عيل صغير يا صقر بلاش تهور.

- صقر: العيل ده ح يخلي فضيحتنا بجلاجل.

- غزلانة: يا فضيحتك ياغزلانة عمرك راح هدر(يحاول نور الجري فيعرقله شمروخ برجلهويجسم عليه صقر بمطواة يحاول ذبحه ونور يحاول التخلص منه)

- نور: حرام عليك, الحقيني يا «غزلانة» أنا مش ح تكلم مش ح فضحك يا «غزلانة».

- غزلانة: بجد يا نور؟

- نور:أي والله.

- شمروخ: إيه يا صقر خلص عليه ح تحطنا وتحط نفسك تحت رحمة عيل.

يهوي «صقر» على رقبته بالمطواة ويكاد أن يذبح نورإلا أنه حرك رأسه بعض السنتيمترات فشق حرف المطواة جلد رقبته من جهة اليمين ومع التشبث بالحياة يستطيع «نور» الفكاك من أيديهم ويحاول أن يجري للفرار وهو ينزف ويتبعه «صقر» و «شمروخ» مصممان على قتله، يقع «نور» على الأرض بعد عدة خطوات، فيجد بجواره قدومًا صغيرًا كان العم «حافظ» يقطع به الخشب الذي يستخدمه وقودًا لعمل الشاي، فيلتقط القدوم للدفاع عن نفسه وفي لحظة سقوط صقر عليهثانية بالمطواة لذبحه، يعاجله نور ويهوي عليه بالقدوم الصغير فتغرس حافتها حوالي ٢ سم في صدر «صقر» و يتركها «نور» في صدر غريمه دون أن ينزعه ويحاول الفرار ولكن «شمروخ» يمسك به ويحمله عنوة ويتجه به إلى جذع شجرة الجميز ويوثق

يديه بملحفة ويثني رقبته على الجذع ويتقدم «صقر» بعد أن نزعت «غزلانة » القدوم الصغيرة من صدره، وبكل غيظ من آلام الضربة يضغط على رأس الفتى بيده اليسرى إلى الخلف ويذبحه بيده اليمنى، كان نور قبل أن تهوي عليه المطواة يستغيث «بغزلانة»:

- نور:أنا مش ح فضحك يا غزلانة أنا مش ح تكلم؟ أنا نور اللي بيحبك مش حأتكلم.

- غزلانة:(بقلب غليظ رانت عليه أوساخ المعصية لا تلقي بالًا للاستغاثة وتندب حظها) يامصيبتي يا مراري.

ترك الثلاثة نور ينزف، واختفوا كما تختفي الثعابين في الشقوق، وهرولت «غزلانة» نحو القرية هاربة كأفعى خبيثة نفثت سمها على الفتى فمات مذبوحًا على ذيل ثوبها النجس،ولكن هذا المشهد الأليم لم يغب عن عين «شاهين الوزان» رفيق نور وزميله الفاشل، الذي اختبأ في كوخ قريب من مسرح الجريمة، بشاعة المنظر وهول الحادثة جعلت قلبه يدق كالطبل من الخوف والرعب، وانتهز فرصة اختفاء المجرمين وأخذ يعدو بأقصى سرعة ليقص ما رآه على أبيه.

٩- الوداع الأخير

وفي ذات اللحظة التي ذبح فيها «نور» كانت «عناكب» زوجة«بشندي» قد قذفت بمولودها للحياة وخرجت «محبوبة» تبشر الزوج بإنجاب ذكر ووجهها ينطق بالسعادة:

- محبوبة: مبروك جالك ولد

- بشندي: يا كرم الله «نور»الصغير وصل يا بلد.

رغم بشاعة ذبح الفتي «نور» لم يكن أحد يتوقع أن هناك من كان يشاهد مسرح الجريمة بجوارالكوخ، فقد كان «شاهين الوزان» هو شاهد الإثبات الوحيد، ومن خلال فتحة الكوخ رأى ما حدث، وقص وهو يرتعد من هول ما رأى تفاصيل الواقعة كاملة على أبيه «الوزان»، وبعد أن خفف الأب من روع ولده تارة بالمسح على رأسه، وتارة بتقديم الماء البارد، حذره من كشف ذلك الأمر أو الحديث فيه مع أحد خشية انتقام «صقر» ورفاقه.

لم يكن«الوزان» يمتلك أي وازع أخلاقي، فهو شخصية منحرفة في القرية وقد تعود على سرقة الفلاحين في الميزان من خلال بقالته، فهو يوزع التموينٍ الشهري على الفلاحين، وكان يطارد «غزلانة» محاولا إغواءها ولكنها كانت تنفر منه فهو رجل كريه الشكل عديم الضمير سليط اللسان، وهنا وجد «الوزان» ضالته، فهو

قريبًا سينال رغبته ولو علىبقايا دماء «نور» وجثته ضاربًا بالحقيقة عرض الحائط.

بعد نصف ساعة تقريبًا في الساعة السادسة اكتشف العم «شاكر» الحادثة عندما ذهب ليشرب من الزير أسفل الجميزة، لم يتمالك أعصابه عندما علم أن الجثة لـ«نور» فسقط مغشيًا عليه من هول الصدمة، وعندما غاب عن العودة ضرب القلق ابنته «بدوية» ذهبت تستطلع الأمر وعندما شاهدت أباها طريحًا على الأرض وبجواره جثة «نور» في تمام السابعة صباحًا أخذت في الصراخ، وانتابتها حالة هستيرية من هول الموقف، فكانت بين الصراخ والذهول والعويل حائرة، على صوتها الهادر تجمع كل من في الحقل يبكون الفتى وما أصابه مذهولين من الحدث، «فنور» هو حليةالقرية البهية وحلمالصفاء والنقاء.

طار الخبر بسرعة البرق إلى العمدة، الذي ارتعدت فرائصه من بشاعة الحادث فرغم غيرته من «نور» لم يتمالك نفسه حين رأى ابنه «شوكت» يبكي خليله بحرقة وزوجته «عفت» هانم منهارة، لقد اكتشف العمدة أن «نور» كان فردًا من الأسرة بالنسبة لزوجته وابنه الوحيد على الأقل، بسرعة قام العمدة وطلب الشرطة، واستخدم نفوذه واتصالاته لإتمام إجراءات الدفن، لقد أنهى الطبيب الشرعي عمله وأصدرت النيابة تصاريح الدفن وتم تحريز المطواة المستخدمة في الجريمة، والمعول الذي ضرب به «صقر»، كان موقف العمدة محل رضا أهل القرية جميعًا فهو بذل جهدًا كبيرًا لاختصار الإجراءات الرسمية في مدة وجيزة،

وتم تجهيز جثة «نور» للدفن وتم وضعه في النعش أمام منزل أبيه.

كانت«فوزية» و «حافظ» في السوق تنتابهما حالة قلق، فمنذ الصباح وهما يشعران بانقباض دون سببوفي لحظة ذبح «نور» بتلقائية ودون سبب صرخت «فوزية» صرخة قوية سقط معها قلب زوجها «حافظ» وهما فوق سيارة ربع نقل، توقف السائق لتهدئتهما فقد ظن أن ذلك الصراخ نتيجة لاقتحامه مطبًّا صناعيًّا دون سابق إنذار.

دخل «حافظ» وزوجته السوق وسط حالة غريبة من القلق، فرغمأن البيع قد تم بسعر عال لم تبد عليهما فرحة أو اهتمام بالنقود أو بالحرص عليها خوفًا من السرقة، وبارتباك شديد تم شراء الدراجة لـ«نور» وبعض احتياجات الأسرة من الأقمشة وكسوة العام، وبقيت بعض الجنيهات معهما، عاد الأبوان مع قرب أذان الجمعة، ومنذ أن دخلا القرية ومعهما دراجة «نور» الجديدة لاحظا أن أعين الجيران والفلاحين تهرب من النظر إليهما، وكان هذا التجاهل ينذر بشر ما، ولكن ما هو هذا الشر؟ لم يجرؤ أحد على إخبارهما به؟

على مقربة من منزل العم «شاكر»سمع الأب «حافظ»صوت عويل «بدرية» خطيبة سيد ابنه نظر إلي زوجته «فوزية» :-

- حافظ: يكون شاكر أبو بدرية مات؟

- فوزية:(تخبط على صدرها) يا لهوي

- حافظ: امسكي نفسك يا فوزية

- فوزية: قلبي ح يتقطع يا بو سيد.

تنزلق دموع غزيرة من عين «فوزية» وينهار «حافظ» دون أن يدري لماذا؟ فهو كثيراً ما كان يتماسك في حالات الوفاة سواء لأقاربه أو لأصدقائه، هذه المرة الوضع مختلف تنتابه حالة حزن غير مسبوقة، كان منظر النعش أمام منزل العم «حافظ»وتجمع أهل القرية متراصين في خطوط طولية بجوار الحوائط الطينية منظر مهيب، وعندما اقترب الشيخ حافظ من النعش استقبله ابنه «سيد» ببكاء حار دون أن ينطق بكلمة واحدة.

فجأة انهال عليه الجميع لتعزيته بكلمة البقية في حياتك كل هذا وهو يظن أن المتوفى هو «شاكر» جاره، ولكن ظهور «شاكر»معزيًا شل تمسكه وانهارت قواه:-

- شاكر: شد حيلك يا حافظ يا خويا

- حافظ: في مين؟

- سيد: (يتدخل سيد منهارًا باكيًا) نور يا آبه

- فوزية: نور ابني طيب إزاي وليه؟ (يرتفع صراخ فوزية مدويًا، وتهجم على النعش لترى ابنها وفي هستيريا تخاطب «نور»كأنه مازال حيًّا) نور يا ولدي أنا جبت لك العجلة عشان تروح بيها المدرسة قوم يا حبيبي عشانتشوف عجلتك! ما حدش هيركبها غيرك، ح ترتاح من المشوار الطويل

ياولدي وحتروح المدرسةراكب! نور يا ولدي! نور يا ضناي! يا بن بطني! بص علي عجلتك أهي جبتهالك جديدة سامعني؟ يا ولدي انزل من الخشبة أركبها، قولي ياضناي مين ركبك النعش ده؟ لسه بدري عليك! طيب إنزل وأنا أطلع مكانك.

- حافظ:(بذهول ودهشة)وليه؟ أنا مش فاهم حاجة! رد يا ولدي قولي من قتلك؟(باستنكار)لا لا ابني نور لسه صاحي هو راح الغيط يجيب أكل للجاموسة، أكيد اللي في النعش ده مش ابني! مش كده يا رجالة؟ (يتحسس النعش ويستنشق رائحته) بس هي دي ريحة نور ابني، طيبمين ح يبقى دكتور يا بلد؟ مين ح يعالج الوجع؟ مين ح يحقق حلمك؟ إنزل يانور بلاش إنت، يا ابني أنا اللي ح أطلع مكانك(ويهم بكشف غطاء النعش للصعود فيتقدم الرجال يجذبونه نحو الخلف)

- فوزية: (تهجم هي الأخرى على النعش) أنا اللي ح أطلع مكانه، أنا ح أروح معاه مش ح اسيبك يانور.

- سيد: (يتقدم نحو أخيه ويصرخ كالأسد الجريح) أنا مش ح أسكت «يا نور» ح انتقم من القاتل يا«نور»

تنهمر الدموع من أعين الجميع ويتقدم بعض الرجال يجذبون «فوزية» وهي تصمم على كشف النعش لرؤيته ووداعه ومن شدة تشبثها كان الرجال يسحبونها وهي تقاومحتي وقعت وسحبوها على الأرض وهي مستلقية على ظهرها حتى أدخلوها منزلها فقد

كانوا يشفقون عليها من أن ترى رأس نور المذبوحة، وقد نجحوا في ذلك، بينما فريق آخر يفعل نفس الشيء مع الأب «حافظ».

وانطلقت القرية كلها تشيع ذلك الفتى الذهبي في أسى، الكل خرج للوداع الأخير، والحزن ملء النفوس، تملكت أخوه «سيد» رغبة جامحة في الثأر من القاتل، فهو لا يعرف من قام بذلك؟ وكيف له أن يعرف؟ لقد كانت صيحات بكاء سيد كزئير أسد جريح يتوعد بالانتقام.

١٠- التوتر

كان وقع الحادثة على «حافظ» بركانًا زلزل كيانه فهو أصبح قعيدًا لا يقوى على الحركة وانقطع عن العمل في الوسية، وزهد في الدنيا وقد شاخ فجأة وظهرت على وجهه تجاعيد وشحوب لم تكن ظاهرة من قبل رغم تقدم سنه، أما «فوزية» زوجته مازالت منهارة لا تجدي معها محاولات التهدئة فهي دامعة العينين يضربها السهد لا تستطيع النوم من بشاعة ما روي لها عن الحادث، لم تتركها نسوة القرية وكن دائمًا في عونها، فمنهن من تنظف البيت والأخرى تعد الطعام والثالثة تقوم برعاية الجاموسة وإحضار الطعام لها، قرر «سيد» عدم العمل في أرض العمدة لعلمه أنه كان يغار من «نور» وربما يكون متورطًا في الأمر.

ببرود القاتل لم تحضر «غزلانة» للعزاء سوى في اليوم الأول، وفي اليوم التالي قابلتها «فوزية» بنفور لا تدري سببه، وبعد هذا اليوم لم تكرر زيارتها وظلت في رهبة وخوف من انكشاف أمرها، وظلت «عناكب» تسح الدموع وتواسي «فوزية»،أما قلب «بشندي» فيعتصر ألمًا على الفتى، كل القرية الرجال والأطفال والنساء في حالة حزن عليه فهو كان طليعة الحالمين في الخلاص من المرض والفقر.

رغم ما كان يكنه العمدة من حقد دفين على «نور»

إلا أنه وقف بكل قوة لحث أجهزة الأمن للكشف عن الجريمة، كانت القضية مغلقة ولا يوجد بها أي بوادر للكشف عن هوية الجاني ولم يكن أمام النيابة من قرائن سوى مطواة صاحبها مجهول الهوية وبعض البصمات، ولم يكن مألوفًا ذلك النوع من الجرائم البشعة، وكان الاعتداء على الأطفال والفتيان والنساء عارًا على كل من يقوم به، لا أحد يعلم حتى الآن أن ما حدث كان بسبب المرأة اللعوب «غزلانة» وشركائها في الفجور.

جمعت الشرطة بصمات الكثير دون جدوى، و ما زالت التحريات تملأ القرية ومازال الغموض يسيطر على الجريمة، وثمة هواجس تتجه نحو اتهام العمدة، وهذا دفع «سيد» أخو «نور» إلى إعلان نيته في الثأر منه وقتله انتقامًا لأخيه، ولم تفلح محاولات الأب «حافظ» في إقناع الأخ الثائر بالتروي قليلًا لمعرفة الحقيقة فليست غيرة العمدة دافعًا مؤكدًا للقتل، ولكن «سيد» مازال جامحًا في غضبه مصممًا على الانتقام.

انتقلت تلك الهواجس والشكوك إلى العمدة فالقرية صغيرة وكل همسة تصل إليه من خلال بعض التابعين والمنتفعين الذين جندهم ليكون على بينة بكل شاردة وواردة، فلا يمكن لسلطة أن تستمر دون عيون وجواسيس ويد تبطش، وفي محاولة لتبرئة نفسه استدعى العمدة الشيخ «حافظ» وأقسم له أنه لا علاقة له بما حدث، وكان العمدة نادرًا ما يقسم أو يكترث بأحد، وفي مثل تلك الأحداث كان يبطش مهما كانت النتائج، وكان يمتلك أدوات البطش، وقد طلب منه مهلة شهر لكشف

الجاني، وكانت ثمرة هذا اللقاء أن الأب شعر بصدق العمدة وتأكد بقلبه أنه ليس الجاني.

ولكن الشطط عند «سيد» جعله يعلن بين أقرانه أنه سيحرق قلب العمدة على ولده «شوكت» وكان هذا التهديد بمثابة بوابة جهنم التي يمكن أن تحرق القرية، فلو غضب العمدة سوف يحرق الجميع وخاصة أن «شوكت» ابنه الوحيد، وفي سرعة البرق طارت تلك الأنباء لتصل «عفت» هانم، فجن جنونها، وقررت دون إبطاء أن تأخذ ولدها وتترك القرية لحين معرفة الجاني الحقيقي أو ظهوره، فهي لن تستطيع أن تضع فلذة كبدها وابنها الوحيد في مرمى النيران ليفقد حياته دون جريرة.

غضب العمدة «عطوان المر» من ذلك الحل الذي طرحته زوجته، وشعر أن ذلك سيفقده هيبته ونفوذه لو هربت زوجته بولده «شوكت»،وأن هذا الحل أيضًا ينتقص من كرامته، كما أن سفر عفت هانم وابنه قد يؤكد الشكوك التي انتشرت في كل مكان، وأقسم بالطلاق على زوجته بعدم مغادرة القرية وخضعت لرأيه وهي في غاية الرعب، يتملكها قلق لا حدود له، ففلذة كبدها معرض لذات المصير.

تفاصيل الحقيقة كاملة كانت ملك «الوزان» بقال القرية وابنه «شاهين»، وكان من الممكن حل المعضلة وتقديم الجناة للعدالة ولكن «الوزان» يأبى إلا أن يكون مزورًا وانتهازيًا وعربيدًا، وفي الأسبوع التالي من الحادثة ذهبت «غزلانة» لشراء الشاي من بقالة «الوزان»:

- غزلانة: هات باكو شاي.
- الوزان: (يغمز بعينه بنظرة كلها إيحاءات جنسية) شاي؟ قابليني من باب البيت الوراني.
- غزلانة: أنا مش بتاعة كده يا أخويه.
- الوزان: بذمتك؟ طيب وصقر وشمروخ وأبو شنب؟
- غزلانة: (بارتباك تتصنع الشرف) وإيش عرفني بيهم؟
- الوزان: طب عيني في عينك كده؟ خلاص أروح للعمدة وأقوله الحكاية من طقطق لسلامو عليكم؟ بأمارة ضربة نور في صدر صقر دا حتى الضربة لسه معلمة وقدامها شهرعلى بال ما تخف.

وقع كلام «الوزان» على آذان «غزلانة» كالصاعقة فهي لم تتوقع أن هناك أحدًا يعلم تلك الحقيقة وخاصة أن الشاهد الوحيد قد ذبح، وقد كان صمتها على قتل «نور» يجعلها تظن أن بموته سيموت سرها، من أخبر هذا الوغد بتلك الحقيقة؟ أشار إليها «الوزان» أن تتبعه إلى المنزل الخلفي الملحق بمحل بقالته فهو معد كمخزن للبضاعة وبه غرفة مجهزة للقيلولة يستريح بها لبعض الوقت، دون أن تنبس بكلمة واحدة تحركت «غزلانة» خلفه.

فتح «الوزان» الباب ودخلت وراءه ثم أغلق الباب بسرعة وتحركا سويًا إلى غرفة النوم، وحصل الوزان على ما يريد منها، تجمع الوغدان في لقاء محرم

يرقصان فيه على جثة الذبيح، وقد تعهدت العاهرة على أن تلبي رغبته مستقبلًا كلما طلبها نظير أن يسترها، لقد تعقد الأمر وأصبح هناك جديد يهدد حياتها، ومازال مصير زوجة الحداد يلاحقها وصوت استغاثة «نور» يقلق نومها فهول الجريمة وبشاعة ذبح الفتى لا يمكن أن تمحى من الذاكرة، كما أن اكتشاف علاقتها مع «الوزان» سوف يلقي بها في نفس المصير، ولا محالة من الخلاص من «الوزان».

وربما كانت تلك الحادثة هي بداية تغير الطباع والسلوك بالقرية، فرغم أن القرية لا يتجاوز عدد سكانها في ذلك الوقت بضعة آلاف نسمة إلا أن مسرح الجريمة الأخلاقية ربما لا يضم سوى «غزلانة» و «الوزان» أما الجرائم الأخرى فهي بقايا قهرالإقطاعي العمدة «عطوان المر» وبعض الحوادث الحياتية.

«غزلانة» عقدت أمرها على ضرورة التخلص من «الوزان» لقتل سرها وقررت أن تبلغ «صقر» كي تعلمه بأن هناك شخصًا آخر على علم بكل ما حدث وأن مصيرها هي والصيادين الثلاثة في خطر فهذا هو الخلاص، لابد أن يصمت «الوزان» إلى الأبد، لقد تريثت لمدة أسبوعين عن الاتصال «بصقر» خشية اكتشاف أمرها وكانت طوال الأسبوعين تلتقي «الوزان» مقابل الصمت، وهو كالحيوان منتشيًا بممارسة الرذيلة.

يضرب الهلع قلب «غزلانة» فهي تصبر على معاشرة «الوزان» خشية الفضيحة والموت، وليس رفضًا لمبدأ الخيانة فهي قد تعودت على ذلك، وما كان منها إلا أن

ذهبت إلى «صقر» في باكورة الصباح الأخير لتخبره بأن هناك من يعلم بتفاصيل الواقعة وانصرفت مسرعة قبل أن يراها أحد.

اجتمع «صقر» و«شمروخ» و«أبو شنب» للتداول في الأمر وقد اتخذ قرارًا بضرورة التخلص من «الوزان» ولكن «أبو شنب» كان رافضًا لهذا الخيار كما كان رافضًا لذبح «نور» حاول كثيرًا إقناعهما بعدم قتل «الوزان» فالأمر سيحمل خطورة أكثر مما يمكن توقعه، ولكن شريكيه صمما على الخيار الدموي، واعتذر هو عن المشاركة.

اختلطت الأوراق وتحول السلام والأمن بالقرية إلى كابوس.«سيد حافظ» اشترى بندقية للانتقام لأخيه، وكل الخوف أن يقوده الغضب للنيل من «شوكت» ذاك البريء انتقامًا لأخيه، وبات هذا الاندفاع الأهوج يسيطر عليه.

١١- شؤم المعصية والآلام

يأخذ فرع رشيد أمام القرية خطًّا شبه مستقيم تارة ومتعرجًا تارة أخرى ويظل خط سيره ينفرج تدريجيًا نحو الشمال الغربي حتى يصل مدينة رشيد حيث قاعدة الدلتا في الشمال على ساحل البحر الأبيض المتوسط، ويتميز النهر أمام القرية بالاتساع الهائل الذي يربو على أكثر من ٩٠٠ مترًا أحيانًا، علاوة على عدم عمق المياه ففي بعض الأجزاء كان الفلاح يستطيع أن يعبر النهر مترجلًا والمياه تكاد تغمر صدره وخاصة قبل أشهر الصيف.

أما في يناير ومع فصل الشتاء بعد بناء السد العالي تبدل الحال وكانت المياه المسموح بصرفها استعدادًا لفيضان الصيف القادم تغمر المساحة الخضراء التي يحضنها الجرف الكبير ليشمل تلك المنطقة الرعوية على شاطيء النهر، فيزداد عرضه وأحيانًا كان الماء يتجاوز في ارتفاعه عدة أمتار فقط وهذا يستقطب الأسماك مما يسهل عمليات الصيد، على عكس زمن الفيضان قبل بناء السد فقد كانت المياه تتجاوز الجرف الكبير بالكامل وتغرق الأراضي التي تعلوه حتى تهدد الجسر الكبير الذي يحمي القرية من خطر الفيضان وقتها.

فرع رشيد في هذه المنطقة نادر الجمال حيث المياه الشفافة فالأشجار على الشاطئين تستقبل آلاف الطيور،

ومع تباشير الصباح تنطلق مقطوعات موسيقية تعزفها شقشقة العصافير مسبوقة بأذان الديوك وبين الفترتين ينطلق الفلاحون إلى الحقول للعمل.

ومع أذان الفجر تنطلق القوارب الصغيرة في النهر لتجلب الرزق، وقد استحوذ الصيادون الثلاثة على النهر عنوة وحصروا باقي الصيادين في مساحة محدودة وخضع النهر كله لسطوة «صقر» واستطاع أن يروض الجميع بسلاحه الآلي بينما كان «شمروخ»يمتلك طبنجة ٩م وسلاح «أبو شنب» عبارة عن فرد روسي محلي الصنع طلقة واحدة، وكانت سطوة كل منهم وحدود نفوذه تقاس بقوة السلاح الذي يملكه.

لم يكن «صقر» يمتلك أي وازع من ضمير فعلاقته مع «أبو شنب» و«شمروخ» لم تكن صداقة بل هي نوع من علاقات المصالح المغلفة بالانتهازية والغيرة والتنافس، فالقاسم المشترك بينهم شرب المخدرات أو امرأة ساقطة، فالثلاثة لا يتورعون عنٍ أي شر يرتكبونه وربما كان «أبو شنب» أقلهم ميلًا للجريمة ولكن شخصيته الضعيفة جعلته متأرجحًا بين الاثنين فهو من أسرة طيبة الجذور ولم يهبط إلى النهر للصيد إلا بعدما باع أرضه وبدد ميراثه على شراء الحشيش والأفيون.

بعد الجريمة النكراء بأسبوع كامل عاد الصيادون الثلاثة لمزاولة مهنة الصيد في النهر، وكل صياد منهم يصطاد لنفسه، وبقاربه الخاص، ورغم وفرة الأسماك في النهر لم تكن الشباك تحصد شيئًا باستثناء

«شمروخ» فكانت شباكه تكاد تحصد كل ما هو في قاع النهر من خيرات، ومنذ أسبوع والرزق ينهمر على «شمروخ» وحده وهذا لو استمر سوف يمكنه من جمع الأموال التي تعينه علي شراء سلاح آلي ليتقاسم النفوذ والسيطرة على النهر، باتت تلك الاحتمالات تهدد منطقة نفوذ صقر وتشغل تفكيره، فهو بعد أن أخضع الصيادين بسطوة السلاح من الوارد عن قريب أن ينازعه «شمروخ» هذا النفوذ أو ينتزعه منه عنوة كما فعل هو وانتزع زعامة النهر عندما قتل«رشيد الفرماوي».

تحولت الغيرة بين الغرماء إلى تراشق بالألفاظ وأحيانًا السباب، وكان هذا التنافر يؤدي إلى قيام «صقر»يوميًا بتقليص مساحة الصيد المخصصة «لشمروخ» دون جدوى فالشباك تعاند وتأبى إلا أن تحصد المزيد، كان هذا يجعل صقر يغير ما تم الاتفاق عليه، فكل يوم نظام جديد، أوغر هذا التعنت صدر «شمروخ» لدرجة جعلته يفكر في قتل غريمه في ذات اللحظة التي قرر فيها «صقر» الخلاص منه، وفي فجر الجمعة التالية حدث الصدام المروع فبعد التراشق رفع كلاهما سلاحه في وجه الآخر للفوز بالنفوذ وحده.

أطلق «شمروخ» الطلقة الأولى من مسدسه فاستقرت في قلب «صقر» الذي قاوم الاحتضار وأفرغ خزينة سلاحه الآلي على غريمه وسقط الاثنان صرعي كل فوق قاربه، بيد أن الدفعات الآلية أحدثت ثقوبًا في قارب «شمروخ» فغرق القارب والجثة معًا بسرعة البرق واختلط الماء الشفاف بالدم الأحمر وظل «صقر» يحتضر فوق قاربه إلى أن فارق الحياة في ذات الوقت

الذي ذبح فيه «نور» في صبيحة الجمعة الرابعة بعد الحادث.

تجمع الصيادون بسرعة وفي مقدمتهم «أبو شنب» الذي كان علي مقربة من القتيلين وسمع الحوار ولم يفلح في الوصول إليهما للتهدئة فالرصاص جعله يقفز في الماء ليختبئ في قاع النهر خوفًا من زخات السلاح الآلي الذي أفرغت خزينته وانحرفت بعض الطلقات شمالا ويمينًا، وبعد دقائق خرج «أبو شنب» من تحت الماء وقد تلون البحر باللون الأحمر، تملكت الصيادين حالة من الرعب ممزوجة بالفرح المكتوم فقد تخلصوا جميعًا من هذا الثنائي المجرم ، وبعدها بساعة حضرت الشرطة وحرزت السلاح المستخدم وأخرجت جثة شمروخ من الماء.

أربك هذا الخبر «غزلانة» فهي لا تدري إن كان هذا في صالحها أو ضدها، لم تشعر بحزن ولا فرح ولكن رهبة الموت هزتها من الداخل خشية أن تلقى نفس المصير، بينما شعر العم حافظ وزوجته فوزية بارتياح عقب سماع هذا النبأ، ربما كانت أرواحهما تشعر بشعور غامض لا يمكنهما تفسيره.

حرزت النيابة الأسلحة المستخدمة وحولت الجثتين للتشريح، ولكن تقرير الطب الشرعي كشف عن قطع أفقي في صدر «صقر» قبل الجريمة بأربعة أسابيع واستنتجت النيابة أن عمر هذا القطع تزامن مع جريمة مقتل «نور»، وتأكدت تلك الشكوك عندما أسفر تقرير رفع البصمات عن وجود تطابق بين البصمات

المرفوعة من على السلاح الآلي الخاص بـ«صقر» وبين البصمات المرفوعة من على المطواة المحرزة مع جثة «نور» وقد ربطت النيابة بين التوقيتات المتداخلة لتحصل على دليل الإدانة وخاصة أن الجرح القطعي بصدر «صقر» ثبت أنه بنفس المعول الذي وجد بجوار الجميزة.

تمكنت النيابة من فك لغز جريمة «نور» ولكن كان لابد لها أن تتعرف ما الدافع لارتكاب هذه الجريمة؟ وكان «أبو شنب» هو الورقة التي يمكن أن تكشف التفاصيل الكاملة ومن ثم قبض عليه.

أثلج هذا الخبر صدر العمدة وضغط بنفوذه لتسريع التحقيقات للوصول إلى الحقيقة حتى يبرأ نفسه من تلك الفعلة الخسيسة أمام الجميع، وأدرك «سيد» أن قاتل أخيه هو «صقر» وليس العمدة حمد الله أنه لم يتسرع في أخذ الثأر فعدالة السماء كانت حاسمة ولكن مازال سبب القتل غامضًا.

جنت «غزلانة» وأدركت أن التحقيقات سوف تفضح أمرها فهرولت نحو «الوزان» بقال القرية لكي يقدم لها الحل أو يساعدها ولكن هيهات أن يقدم لها شيئًا أو ينقذها من الموت، فمن الوارد أن يعترف أبو شنب عليها؟

وعلى الجانب الآخر أصبحت السرايا كأنها مستشفى تستقبل الأطباء واحدًا تلو الآخر دون جدوى، وقد مر أكثر من أسبوعين بعد أجازة نصف العام الدراسي و «شوكت» طريح الفراش ما بين الصراخ والعويل

والحزن وخاصة أنه شاهد الجثة أسفل جذع الجميزة، فهو يرى «نور» دائمًا ويخاطبه كأنه أمامه هذا الترابط الوجداني جعل كل من حوله يعتقدون أنه قد جن، فهو كثيرًا ما يتحدث إلي نور كأنه على قيد الحياة ويتوهم سماع صوته دون أن يلقي بالًا لأحد أو يشعر بمن حوله فهو في عالم خاص به يتحاور مع نور:

- شوكت: مين عمل فيك كده يا نور؟

- صوت نور: المجرمون يا شوكت.

- شوكت: مين دول؟

- صوت نور: بكره تعرف كل حاجة في وقتها.

- شوكت: لازم أنتقم لك يا نور.

- صوت نور: تنتقم لي إزاي؟

- شوكت:أقتل اللي قتلك.

- صوت نور: سيبك من القتل، أنا كان نفسي أكون دكتور عشان أعالج الناس الغلابة.

- شوكت: ما خلاص إنت ميت ح تبقى دكتور إزاي؟

- صوت نور: إنت عايش يا شوكت لازم تبقى دكتور، بلدنا محتاجة حد يعالجها.

تنهمر الدموع من عين «شوكت» كأنها شلال و«عفت» هانم بجواره تبكي ولدها ومصير «نور» في آن واحد، تقترب منه تمسح على رأسه وعندما جاء الطبيب وانتهى من الكشف أشار على الأسرة بضرورة أن ينتقل إلى مكان آخر لا يوجد فيه ما يذكره بـ«نور».

غادرت «عفت» هانم وابنها القرية إلى الإسكندرية للهروب من الذكريات فشوكت كان يرى صديقه في كل شبر داخل القرية، وهناك بذلت الأم مجهودًا هائلًا كي تخرج ولدها من حزنه، كانت تذهب به إلى السينما في المساء، وضمته إلى فريق كرة القدم بالنادي الرياضي، كانت تفاجئه كل يوم بل كل ساعة بشيء جديد ونجحت عفت هانم تدريجيًّا في تضميد جراحه وما كاد يمر أسبوعان حتى عاد إلى اتزانه.

كان العمدة متلهفًا لعودة ابنه إلى القرية ولذا سافر إليهم كي يصطحب «شوكت» وزوجته وعاد في صباح اليوم التالي إلى القرية، ولكن بمجرد العودة انتابت «شوكت» نفس الحالة من جديد صراخ وعويل فكل شيء في القرية يحمل له ذكرى قديمة، لم تفلح محاولات الأب والأم في تهدئته وكان قرار الأطباء أن شفاء «شوكت» متوقف على العيش بعيدًا عن القرية ولذا قرر العمدة أن يعود به مرة أخرى إلى الإسكندرية وقام بإجراءات نقل ابنه إلى مدرسة محرم بك الثانوية.

لم تكن «فوزية» أم «نور» أسعد حالًا فهي منهارة تمامًا منذ الوفاة ولم تجد معها أي محاولة للتهدئة كذلك الأب «حافظ»ازداد حاله سوءًا وكاد أن يصاب بالعمى من كثرة البكاء ولم يكن ذلك الحزن بسبب الوفاة فحسب ولكن بسبب عملية الذبح البشعة وقد أثر ذلك الحادث على القرية بأكملها فالكثير منهم أرجأ حفلات الزفاف مراعاة لمشاعر الأسرة.

انتشر الهمس بين الفلاحين حول سبب وفاة نور لقد

قص «شاهين الوزان» الأمر على أمه والأم كعادة نساء القرية تقصصن ما يتبادر إلى سمعهن، والنسوة كالمذياع يتناقلن كل الأخبار همسًا ورغم أن الخبر انتشر بالقرية بأكملها إلا أنه لم يصل إلى أسرة «نور» أو إلى «محجوب» زوج «غزلانة».

بدأت «غزلانة» تشعر أن أعين النسوة تلاحقها والكثيرات منهن يتجنبنها ولذا كان الخوف لديها في تزايد، فربما تلقى مصير زوجة «عطوة الحداد» فهي لم تحتمل أن تنتظر المجهول، كثيرًا ما كانت تفكر هل سيكون قرار إعدامها بالذبح أو بالرصاص أو الشنق، كانت تستيقظ من النوم في حالة هلع وصراخ وكان طفلها جابر بمجرد سماعها تبكي مرتعدة يصرخ على بكائها.

تتبول «غزلانة» على نفسها من شدة الخوف، ورغم ذلك لم يلحظ «محجوب» أي شيء فهو خارج حدود الزمن وفاقد للإحساس، لقد جُبل على الأكل والنوم فقط، وكان هناك كابوس دائمًا يلازمها، فتصحو مذعورة مضطربة، «نور» يأتيها في الحلم وهو ينزف دمًا ورقبته مفصولة عن الجسد، يعاتبها تارة ويعنفها تارة أخرى ولذا كانت ترفض أن تنام حتى لا تراه، فمازال صوته يخترق أذنها، وبعد أن يغالبها النوم من فرط السهد تراه وتتحدث معه، فهو يظهر على هيئته لحظة أن قتل والدم يتساقط من أسفل عنقه ورأسه معلقة في الهواء وشفتاه تتحركان والصوت له صدًى مفزع ومخيف وهي ترد عليه في فزع:

- غزلانة: ما كنش قصدي.

- رأس نور: أنا مش قولت لك مش ح أفضحك.

- غزلانة: خُفت.

- رأس نور: فاكره لما التعبان قرصك.

- غزلانة: أيوه فاكره.

- رأس نور: أنا أنقذتك من الموت، تيجي انتي تموتيني؟

- غزلانة: مش أنا.

- رأس نور: لو طلبتي منهم يسيبوني ما كنش حد دبحني (تتعالى صرخات نور مصحوبة بصدى ورعد)

تنهض «غزلانة» تصرخ، وتشعر أن تلك الكوابيس تنذرها بالنهاية وخاصة أن «أبو شنب» قبض عليه وربما يعترف بكل شيء.

١٢- الهروب

تحقيقات النيابة تُجري على قدم وسائق، و «أبو شنب» مفتاح الحقيقة، هناك احتمالات متباينة فالزج باسم «غزلانة» سوف يعني قتلها، ولذا أدرك أبو شنب أنه لابد أن يخرجها من الأمر برمته، وسط مراوغة شديدة أفاد أن «صقر» و «شمروخ» هما من قتلا «نور» وذلك بسبب قيامه بسرقة السمك، رغم عدم اقتناع النيابة بهذا المبرر، لم يكن هناك من بد سوى الأخذ به من الناحية الشكلية، وربما فسرت النيابة قيام «نور» بضرب صقر بمعول في صدره كان دافعًا لقتله وخاصة أن الجرح غائر.

طار الخبر إلى القرية ولم يصدق أحد أن «نور» لص فهذه التهمة جناية ثانية في حق هذا الملاك الطاهر، وجرم ينال من شرف الفتى، وكان الرجال والنساء يتهامسون بأن «غزلانة» هي السبب، كانت تأخذ السمك مقابل علاقة آثمة مع الصيادين، هذا ما تناقلته النسوة عن»أم شاهين» زوجة «الوزان» فرائحة السمك التي كانت تنطلق في أرجاء الحارةتشي بذلك، وحكاوي «محجوب» للفلاحين عن مذاق السمك تشي بالحقيقة كاملة، أدرك الجميع أن هذا المذاق الذي يتفاخر به محجوب ينبيء بوقاحة عن علاقة الفجور بين «غزلانة» والصيادين.

عيون الفلاحين والنسوة تلاحق «غزلانة» أصبحت تشعر بأنها تعيش في سجن من اللوم، تفر من النظرات التي تقصفها كالسهام لتجد نفسها أمام الهمسات التي ترجمها بالزجر، الكل يرفضها، تولد في نفسها حقد دفين ضد القرية بأكملها، تريد أن تحرقها لكي تهرب من هذا الحصار، من هول الموقف اقتنعت بأنه لا مفر من مغادرة القرية،ولذا أقنعت زوجها «محجوب» بضرورة الذهاب إلى القاهرة للعمل هناك، فلاقت الفكرة رواجًا لديه، فكثيرًا ما كان يسمع عن القاهرة وجمالها، ورغد العيش بها.

وبين الإغراء والإلحاح انطلق «محجوب»و«غزلانة» وابنهما الرضيع «جابر» خلسة للمغادرة، فخرجا متسللين قبيل الفجر إلى محطة القطار، يحملان بعض المتاع في قفة من خوص، بيد أن الطفل الرضيع تنبعث منه صرخات مدوية كأنه لا يريد أن يترك المكان، كانت صرخاته تتداخل معأصوات التواشيح الدينية التي تنطلق من المذياع المثبت أمام سماعة مكبر الصوت بجامع القرية الكبير.

مع زخات المطر تغوص الأقدام في الأرض الطينية، معضلة القرية في الشتاء أن تربتها الطينية تهدد كل من يتحرك فوقها بالانزلاق في برك المياه المتجمعة في المنحدرات؛ لذا كانت الخطوات بطيئة، فالسقوط في الوحل سوف يطبع الثياب بالطين، ويبلل الجسم والثياب بالماء في جو قارس البرودة.

كان الغفير«بشندي» يجلس بجوار المحطة يوقد النار للتدفئة فرغم أنه يرتدي بالطو ميريًا سميكًا إلا

أن رطوبة الفجر تخترق عظامه، ولم يكن أمامه إلا أن يشعل النار ويحتسي الشاي الساخن.

تتصاعد النيران تشق الظلام الدامس بعمود ناري ينبعث من أخشاب بالية يدخرها الفلاحون من فروع الشجر في الصيف للتدفئة بها في الشتاء فيمزجونها بقوالح الذرة وبعض بقايا الحطب لتكوين مزيج من الوقود كلما نضب صنف اشتعل الآخر، وهج النار في البرودة يغري المسافرين من الرجال إلى الجلوس بجوار «بشندي» للتدفئة، وخاصة في فصل الشتاء أثناء شهر يناير وفبراير، فلم يكن ركاب القطار كُثر إلا في الأمور الجلل أو للسفر إلى العاصمة أو الإسكندرية، فهذا جندي ذاهب لوحدته العسكرية،وهذا طالب وذاك مريض، ولكن «بشندي» ذهل عندما شاهد «غزلانة» و «محجوب» يتجهان إلى المحطة، فجأة اقترب محجوب من النار يتلقى الوهج بكفيه:

- محجوب: صباح الخير يا بشندي.

- بشندي: صباح النور.

- محجوب: صب شوية شاي الأول يا جدع الرطوبة ح تأكلني.

- بشندي: وماله ما هي تكية! على فين من بدري كده؟

- محجوب: أنا خلاص نويت أقعد في مصر، البلد ما عادتش تلذ.

- بشندي: ليه البلد دي أحسن من غيرها.

يهبط «محجوب» ببروده الشديد وينتزع كوب الشاي من يد «بشندي» يرتشفه على دفعتين وينهض ليتمطع في الهواء بعد أن شعر بالدفء ثم يعاود الجلوس بجوار النار، وتمر «غزلانة» منكسرة، والخجل يملؤها، ودون أن تتكلم، تصعد الرصيف وتجلس أسفل مظلة خشبية في انتظار القطار، بعد لحظات تسمع صفارة القطار تشق الفضاء الفسيح، دقائق ويصل القطار لتركب «غزلانة» و «محجوب» في اتجاه الجنوب نحو القاهرة.

علم «سيد»أن «غزلانة» هي سبب مقتل أخيه، فقد سمع القصة في حديث بعض النسوة، ذهب مباشرة إلى منزل «محجوب» والشرر يتطاير من عينيه لم يجد أحدًا توجه إلى منزل الداية «محبوبة» فابنتها «حمدية» صديقتها وتعرف أسرارها طرق الباب بشدة فخرجت محبوبة وحمدية للطارق:

- محبوبة: خير يا سيد يا ابني؟
- سيد: فين غزلانة يا حمدية؟
- حمدية: وعاوزها في إيه؟ (تنظر حمدية ومحبوبة لبعضهما وقد فهما أن سيد عرف الحقيقة)
- سيد: إنتي عارفه كان لازم تقوليلي البلد كلتها عارفه حكايته هي سبب قتل نور وأنتم مخبيين عني.
- محبوبة: روح واقصر الشر يا سيد.
- سيد: لازم أعرف.

- حمدية: زمانها سافرت خلاص قطر الفجرية طلع من نص ساعة.

أنصرف»سيد» وقص الأمر على أبيه «حافظ» وتدخلت أمه «فوزية» مع أبيه يهدآن من روعه فالله قد انتقم لـ«نور» وسوف ينتقم من «غزلانة» ربما كان إيمان الأب وثقته في العدالة الإلهية سبب هدوء «سيد» فثورته قد خبت تدريجيًّاعندما فوض الأمر لله.

١٣- الأمل

مرت سنوات سنة تلو الأخرى، ولم يكن «شوكت» يطيق العودة إلى القرية فمازالت ذكرى الرحيل المؤلم لـ «نور» تلاحقه طوال إقامته في الإسكندرية. وبعد إتمام باقي المرحلة الثانوية حصل على مجموع لا يؤهله للالتحاق بكلية الطب بمصر، لم يكن أمام العمدة «عطوان المر» إلا أن يوافق على سفره إلى إنجلترا لتحقيق حلمه في أن يصبح دكتورًا وخاصة أن أمه «عفت» هانم سوف تتكفل بكل المصاريف فهي تمتلك ٢٠ فدانًا ميراثها من أبيها.

في البداية أبهرت لندن «شوكت» بجمالها، ولكن هذا الانبهار لم يجرفه نحو العبث واختار أجمل ما فيها، اختار العلم والمعارف الحديثة، وتحول الفتى بفعل طاقة كامنة بداخله إلى شعلة نشاط، ولمس الأمل أوتار قلبه، فتولدت بداخله قدرة هائلة على الاستيعاب، لم يكن له هم سوى التحصيل والغوص في بحار العلوم،فسلاحه العزيمة، وكان يستدعي من الماضي صور الفقراء والمرضى، كانت آلامهم تحثه أن يعمل بجد ليعود طبيبًا ماهرًا لعلاج الجراح التي تنزف أوجاعًا صاخبة، وتبدل حاله من طالب متوسط إلى عبقري في التحصيل، كأن روح نور سكنت بداخله، وذاع سيطه بالكلية.

كانت كاترينا ترقب الفتى بتروٍّ، ورغم إعجابها

الشديد بتفوقه وبشخصه، لم تحاول أن تتقرب منه، فهي قد لاحظت نفوره من أي امرأة تعرقله عن هدفه، وكان شغفه بالمعرفة لا يدع لأي شخص فرصة سوى الحديث عن العلوم، ونظريات الطب، والاكتشافات الجديدة، وثمت سبب آخر كان يمنع كاترينا من التقرب منه، فقد كان أبوها من المتعصبين ضد كل ما هو عربي، ولذا كانت تتأرجح بين رغبة التعرف به والخوف من والدها، فلو علم أن ابنته لها صديق عربي ربما يحدث ما لا يحمد عقباه، ولذا ظلت تقاوم وتكتم مشاعر الإعجاب تجاه الفتى الشرقي، حتى انتهت فترة الدراسة بالكلية.

بعد أن حصل على البكالوريوس وبدأ يكمل الدراسات العليا قذف القدر دون موعد بكاترينا مرة أخرى لتكون زميلته،وحصل «شوكت»على الدكتوراة في جراحة القلب، و«كاترينا» توقفت عند درجة الماجستير في جراحة العيون، وقد جمع بينهم حب ولد في ظروف قاسية، ولكن كليهما كان يقوم هذا الحب بطريقته، بيد أن الحب كالسيل الجارف يحطم كل الحواجز والعراقيل، وهذا ماحدث، فبعد طول مكابدة التقى الحبيبان رغم كل الصعوبات في زواج سعيد، مر بسلسلة من الصعوبات.

وأصبح «شوكت» من أشهر أطباء بريطانيا، وينتقل من نجاح لآخر، ومرت السنون عليه من دون أن يشعر بمرورها؛ نتيجة الانهماك في العمل المتواصل، بيد أن الحنين للعودة كان يهز وجدانه ليحقق الحلم، فالقرية مغموسة في وجدانه، وعندما حصل عام ٢٠٠٥ على لقب أحسن جراح في بريطانيا، وهذا اللقب يصعب الحصول

عليه دون أن يبذل المكرم جهدًا خارقًا، فالطب هناك يخضع لمعايير جودة دقيقة، والطبيب المكرم يمر عبر آليات اختبار صعبة، ونجاح «شوكت» يؤكد أن تحقيق أي حلم ممكن عبر العلم والمثابرة، واستضافته إحدى الفضائيات البريطانية، وأثناء الحديث عن جذوره المصرية قفزت إلى ذهنه أحداث الطفولة كأنها حدثت منذ لحظات.

تفجرت بداخله منذ هذا اللقاء قوة هائلة تدفعه نحو العودة دفعًا، فهو دخل كلية الطب لكي يعود ويعالج أهل القرية البؤساء، وبعد هذا اللقاء بدأ نوع من تأنيب الضمير يضرب رأس «شوكت» كيف نسي بلدته؟ كان هدفه من الالتحاق بكلية الطب علاج أهل قريته من المرض، بدأ شريط الذكريات يعود في ذهنه من جديد، وانتابته رغبة جامحة للعودة، ربما كان حزنه على وفاة أمه قد شغله لبعض الوقت، ولكنه اليوم أصبح يسمع صوتًا من داخله يلح عليه بالعودة وتصفية كل أعماله في بريطانيا.

ربما كان مستواه العلمي وشهرته عاملين مؤثرين في القرار، بدأ يشعر بتجاذبات داخلية حادة ما بين بقائه في عالم التفوق، والعودة إلى عالم التخلف، كانت الإغراءات تجذبه نحو البقاء، والإخفاقات تحذره من العودة، الصراع اشتعل بداخله، وأفقده القدرة على التركيز في عمله وأخذ إجازة أسبوعًا ليدبر أمره.

رفضت زوجته «كاترينا» فكرة العودة إلى مصر، وخاصة أن ابنيهما في الجامعة الأول «نور شوكت»

في السنة الثالثة بكلية الطب والثاني «نبيل شوكت» في الصف الأول بكلية الهندسة، كان الحوار حادًّا، وكل طرف يصمم على موقفه، حاول «شوكت» أن يقنع زوجته بما عزم عليه دون جدوى، وتدخل الأصدقاء والمعارف وسط هذا الصراع الحاد قررت «كاترينا» البقاء في لندن أو الطلاق، فهي لن تصحبه إلى مصر ربما كان ابنه «نور شوكت» هو الوحيد الذي يؤيد فكرة العودة وخاصة أن «شوكت» أباه زرع فيه حب القرية فهو تقريبًا يعرف كل ما كان يدور بها وتعلق بها أكثر من خلال أبيه وما يقصه عنها.

كان الصراع متكافئًا «شوكت» وابنه الأكبر في فريق العائدين و«نبيل» و«كاترينا» في فريق الرافضين للعودة، ما هو الحل؟ حتى لا ينفرط عقد الأسرة وخاصة أن «شوكت» كان شرقيًّا تقليديًّا يقدس الحياة الأسرية ولا يحبذ فكرة الفراق، ومتعلقًا بزوجته فما جمع بينهما هو الحب الجارف، فهذا الزواج جاء على الرغم من أسرة «كاترينا» فأبوها من اليمين المتطرف الذي يكره العرب.

لم ينس «شوكت» كيف أن زوجته «كاترينا» تحدت أباها «ألبرت» في هذا الزواج وكيف أن الأمور تعقدت لدرجة أن «ألبرت» بعناد المتطرفين خطط لقتلها معه في حفل الزفاف، فقد بعث لهما بوكيه ورد مفخخًا في ليلة الزفاف.

واستلم الفندق الورد ووضعه عامل الفندق بجانبه على منضدة صغيرة حتى ينتهي من شرب كوب طازج

من عصير المانجو، ولكن وهو يشرب العصير اهتزت يده فوقع العصير على بوكيه الورد المفخخ، وعندها لاحظ مدير الفندق ذلك هرول إلى العامل وأخذ يعنفه على الإهمال، ولكن العامل تعهد بشراء بوكيه آخر جديد بدلًا منه، وأخذ ينظف الورد ويستخرج كارت الإهداء الذي لم يكن مدونٌ عليه سوى عبارات التهنئة، وعند قيام العامل بفتح البوكيه لكي يشتري مثله تمامًا انفجرت في وجهه العبوة الناسفة وأردته قتيلًا وأصابت الشظايا بعض الحضور.

وفي ظلال الحادث الإرهابي أكمل «شوكت» و «كاترينا» ليلة الزفاف برفقة جهاز الشرطة البريطانية في تحقيقات وتوتر، وكان «ألبرت» معروفًا بعناده وتطرفه، استدعته الشرطة لتقف على حقيقة الأمر ولكنه كان رجلًا مراوغًا ولم تستطع الشرطة أن تحصل على دليل إدانة، وكان دفاعه أن «كاترينا» ابنته الوحيدة فكيف يقتلها، وأثبتت التحقيقات أنه كان مريضًا ومحجوزًا في إحدى المستشفيات منذ يومين قبل الحادث.

هز هذا الحادث لندن وهاجمت الصحافة «ألبرت» بشدة ولكنه أفلت من عدالة القانون لينال أقصى عقوبة اجتماعية وانفض عنه بعض الأقارب والأصدقاء، ورغم هروبه من مقصلة العدالة ظل «ألبرت» يراهن على الطلاق ولم يستسلم، فقد كانت المعركة بالنسبة له مسألة حياة أو موت، فكان يضع العراقيل أمام «شوكت» وتسبب في فصله من عمله في أكثر من مكان، ولكن إسلام «كاترينا» ابنته وتغيير اسمها إلى «فوزية»

تيمنًا باسم أم صديقه «نور» كان الضربة القاضية لـ«ألبرت» واشتعل الحقد في صدره وصمم على قتل «شوكت» بنفسه مهما كان مصيره.

في اليوم الذي حدد فيه ذلك العنصري موعدًا لقتل «شوكت» أثناء عبوره الشارع صدمته سيارة فسقط على قطعة حديدية مدببة اخترقت صدره وهتكت البطين الأيمن لقلبه وعندما نقل إلى المستشفى لم يكن هناك متخصص في جراحة القلب سوى مستر «ديفيد» وبفحص الحالة أدرك مستر «ديفيد» أن الحالة ميئوس من علاجها، وتم استدعاء الدكتور «شوكت» فهو مشهود له بالعبقرية الطبية، وما كان منه الا أن صمم على أن يجري بنفسه تلك الجراحة، واستطاع بمهارة فذة علاج هذا التهتك وكان لنجاح العملية أثر هائل على المستوى العلمي في بريطانيا وقفزت تلك الجراحة بـ«شوكت» إلى صفوف الكبار المتخصصين طبيًّا، واجتماعيًّا الصحافة وصفته بأنه قد منح الحياة لمن خطط لسلبها منه، فتلازمت العبقرية الطبية والأخلاقية في سماته وهو ما عزز شهرته.

مكث «ألبرت» شهرًا تحت رعاية «شوكت» وكانت هذه الفترة كفيلة لتغير صورة العربي عنده، رويدًا رويدًا وجد نفسه ينجرف بمشاعر الحب والامتنان نحو هذا العربي، «شوكت» شعلة نشاط، أحيانًا يستمر لمدة ١٦ ساعة أو ٢٠ ساعة في عمل متواصل عندما تكون أمامه حالات حرجة وكان طاقم المساعدين يتغير عليه وهو لا يكل ولا يمل، وكانت تلك العزيمة في علاج المرض مثار تقدير وإعجاب كل من تعامل معه.

ازداد إعجاب «ألبرت» به أكثر عندما علم أنه كل عام يدفع زكاة عن رصيده في البنك ويوزعه على الفقراء سواء كانوا عربًا أم غير مسلمين من بريطانيا أو من غيرها، هذا الوجه الأخلاقي دفع «ألبرت» إلى القراءة عن الإسلام والأديان وعلم أن التطرف في كثير من الأحيان ينجم عن جهل، أو برعاية بعضًا من أجهزة المخابرات الدولية، لأهداف سياسية.

تغير«ألبرت» ورويدًا رويدًا اعتنق فكرة التعايش السلمي بين كافة البشر، وبدأ يشعر بمدى جرمه في الماضي، فالتعصب الأعمي صناعة بغيضة تغذيها عنصرية أبغض، فالأرض تسع الجميع، وتأكيدًا على تلك الفكرة انتقل للعيش مع ابنته وحفيديه، استشعر «ألبرت» جوًّا عائليًّا لم يتذوقه من قبل لقد طبع «شوكت» روح القرية في منزله فتلك النزعة الروحية المفقودة لدى «ألبرت» جعلته يستشعر طعمًا آخر للحياة ربما كان رفض «كاترينا» لمرافقة شوكت إلى مصر هو أن أباها يحتاج في مرحلة الكهولة لرعاية خاصة، وهي لا تريد أن تتركه وحيدًا وهو في فترة الشيخوخة وهو على بوابة الموت.

لهفة الحنين وحلم العودة جعلت «شوكت» عصبيًّا لأول مرة مع زوجته فهو لم يعد يرى سوى صورة الفلاحين البسطاء والمرض القابع هناك، فهو دخل كلية الطب من أجل هؤلاء ليكمل طريق صديق روحه «نور» إنه يشعر أنه قصر في الأمانة وكانت تنتابه الكوابيس والأحلام المزعجة فكان دائمًا ما يرى صورة «نور» في الأشهر الأخيرة تحاصره في كل وقت في

أحلام متكررة تعاتبه، وكانت تلك الأحلام تدور دائمًا على هيئة حوار مازال فيه نور طفلًا وشوكت طبيبًا:

- نور: نسيت الفلاحين الغلابة يا شوكت؟

- شوكت: أبدًا يا نور عمري ما نسيت.

- نور: ليه ما رجعتش؟

- شوكت: الحياة هنا مغرية, العلم مغري.

- نور: أهلك محتاجون العلم ده, ارجع يا شوكت.

يستيقظ «شوكت» يحمل فوق أكتافه وعدًا واجب النفاذ، وزوجته تضع هذا الوعد في مقايضة بين تنفيذه وبين الطلاق، القلق يضرب شوكت كل صباح ومساء، ولا يدري ماذا يفعل في هذه المعضلة؟ فالأسرة منقسمة والمغامرة هائلة، وكثيرًا ما كان يسأل كيف يتخذ القرار أو كيف يتراجع إنه حالة من الشتات ولا أحد يستطيع حسم هذا الأمر سواه، لقد طال الانتظار, وعام يجرٌ عامًا واليوم هو بداية عام ٢٠١٠ فماذا يكون القرار؟

١٤- الغزو

خلال العقد الأخير وقبل قرار «شوكت» بالعودة كان هناك حصار شيطاني على العمدة «عطوان المر»، فقد تعرف على «أشرف زهدي» ذلك الشخص الذي ربما لم ينل من الشرف إلا اسمه، فهو شاب في الأربعين من عمره اشتهر بعلاقاته النسائية المتعددة، وقدرته على المكر والخداع.

توطدت علاقة «أشرف زهدي» بالعمدة وجمعت بينهما صداقة أهل الكيف المزيفة، وكثيرًا ما كان «أشرف» يدعوه إلى حفلات السمر بالقاهرة في شقته بالمهندسين، وكان رواد تلك الحفلات بعض النسوة الساقطات، والمنتقاة بعناية فائقة، فهن على درجة من الجمال لا توصف ويمتلكن ذكاء حادًّا، وسرعان ما أدمن «عطوان المر» على يد صديقه الجديد الهيروين والسهرات الحمراء المتنوعة، وكانت تكاليف تلك الليالي هي إفلاس العمدة، وبيع أملاكه لامرأة لا يعرفها، وكان الشراء يتم من خلال محاميها، دون أن يعرف أحد من هي المرأة المجهولة التي تشتري أملاك العمدة، وكان ذلك الأمر يربك «شاهين الوزان» لأنها تشتري بأسعار عالية وتنافسه في الشراء.

تحت سيف الإدمان استطاع «أشرف زهدي» أن يدفع العمدة دفعًا لبيع السرايا فهي آخر ما كان يملك

من بقايا العز، واقترح عليه أن ينتقل للعيش في بيت الخادمات فهو أسطوري وكبير وبه نحو ٧ غرف كانت مخصصة للخادمات اللاتي تقمن بأعمال النظافة والطهي، والبيت ملحق به عدة مخازن كبيرة كانت مخصصة لتخزين الحبوب واللبن والسمن والدقيق وفي الجزء الخلفي للبيت فناء متوسط به فرن بلدي وبعض أشجار الفواكه.

لم يكن هذا البيت يقل في روعته عن السرايا، ربما كان اسمه قد قلل من شأنه قليلًا، ولكنه كان تحفة معمارية وهندسية ومساحته تقترب من ربع فدان تقريبًا، وتطل مقدمته ونهايته على شارعين كبيرين على شكل متواز مع السرايا ويفصل بينهما مساحة فارغة نحو ١٠٠ مترًا تقريبًا.

وعندما علم «شوكت» بتدهور حالة أبيه المادية كان يرسل له شهريًا ٥ آلاف جنيهًا، وكانت تكفيه بالكاد، ولم تبق في خدمته سوى امرأة واحدة هي «فكيهة» وقد دفعها الوفاء لأن تعمل بدون أجر فهي تربت وهى طفلة في بيت الخادمات حيث كانت يتيمة لا أهل لها، وتمت تربيتها تحت رعاية العمدة، وربما كانت تلك هي الحسنة الوحيدة التي فعلها في حياته.

«فكيهة» تكبر «شوكت» بعدة سنوات ومازالت تستيقظ مع الفجر كعادتها تذهب إلى بيت الخادمات تنظف غرفة العمدة وتعد له طعام اليوم ثم تذهب لعملها في الثامنة صباحًا فهي حصلت على شهادة الإعدادية وقد توسط لها العمدة لتعمل كاتبة بمدرسة القرية الإبتدائية، وهي تخصص يومًا من كل أسبوع

لغسل ملابس العمدة وتنظيف المنزل، حاولت «فكيهة» كثيرًا إثناء العمدة عن بيع السرايا دون جدوى، وعندما تدهورت حالتها أرسلت إلى «شوكت» ابنه خطابًا تقص عليه كل ما حدث.

كانت «فكيهة» الوحيدة التي تستطيع أن توبخ العمدة، وترفع صوتها عليه فهو الذي تبناها وهي لم تعرف غيره أبًا، ربما كانت أحن عليه من أهله، فإخوته قاطعوه اعتراضًا على فساده وانحراف أخلاقه ، بعد أن بدد أملاك العائلة، وهبط بها إلى درجة الفقراء.

تحول العمدة إلى مجرد هيكل وشبح لا يخيف أحدًا، بعد أن كان رضاؤه هو منتهى أمل أهل القرية، لم يعد أحد يكترث به، وعندما تقدم به السن وفقد المال فقد سطوته، فمن كانوا يلهثون وراءه لعلهم ينالون الرضا، يفرون منه الآن، بعد أن كان شرف مجاورته أمنية حتى لو في غرزة حشيش، اليوم الجميع يتهرب منه.

حتى لقب العمدة أصبح لقبًا شرفيًا بعد أن انتقلت العمودية لـ«شاهين الوزان»، تبدل الحال والمآل فـ«شاهين» ذلك الفتي الذي فشل في التعليم استطاع أن يكون ثروة كبيرة بعدما ورث محل البقالة من والده، من الغش في البقالة وتجارة المخدرات اشترى عشرين فدانًا من أملاك «عطوان المر»، ربما كان وجه الشبه بين «شاهين الوزان» و «عطوان المر» أن ثروتهما جمعت عن طريق النهب والسطو فجد «عطوان المر» هو الآخر كان يسرق المواشي وكون ثروته من النهب والحيلة، و«شاهين» والده «الوزان» كان يسرق

الفلاحين في الميزان ويلتهم المقررات التموينية التي يعجز الفقراء عن شرائها ليبيعها في السوق السوداء، واليوم يتقدم «شاهين الوزان» الصفوف بعد أن أزاح لصًّا مفلسًا من طريقه.

وأصبحت تلك المساحة التي يمتلكها شاهين هي أكبر مساحة يمتلكها أحد في القرية باستثناء المرأة التي استطاعت أن تشتري ٢٥ فدانًا ولكن مازالت شخصيتها مجهولة ولم تهبط إلى القرية بعد.

مع بداية يناير ٢٠١٠ هبطت المرأة المجهولة دون أن تفصح عن نفسها، فقد مهدت جيدًا لهذا اليوم، أرسلت عمالًا لدهان السرايا بطلاء جديد، وأعادت تنظيف المفروشات وطلاء قطع الأثاث الأثرية، لتعيد للسرايا رونقها القديم.

توقع البعض أن تلك المرأة هي «رشيدة المر» ابنة عم العمدة «عطوان المر» فهي تكره أفعاله وربما أرادت أن تنقذ سمعة العائلة بشراء السرايا، ولكن هذا التوقع تكشف فيما بعد عدم صحته، فـ«رشيدة المر» حضرت إلى القرية ووبخت العمدة توبيخًا شديدًا أمام الجميع بسبب بيع السرايا.

كان التساؤل على ألسنة الجميع من تلك المرأة؟ ولماذا ترسل من يوزع الشنط الغذائية على كل أهل القرية؟ ولماذا ذبحت ثلاثة عجول لتوزيع لحومها على الجميع؟ دارت التساؤلات دون أن يجد أحد إجابة، ولكن الشيء المحير للجميع ما هي علاقة «أشرف زهدي» ذلك السكير بها؟

دخلت المرأة المجهولة القرية في موكب مهيب تسبقها عدة سيارات وخلفها عدة سيارات فهي ترتدي زيًّا فاخرًا وتبدو عليها العظمة ودخلت السرايا وخلفها رجل قادم من عصر الباشوات وشابان أنيقان الكل في ذهول ولا أحد يعلم من هؤلاء.

في حارة الخياط تجلس «حمدية» ابنة الداية وقد تجاوزت سن الستين، فالدار كما هي، كل ما تغير أن أمها «محبوبة» قد ماتت بعد أن زوجتها في نفس المنزل، وبعد زواج «حمدية» ببضع سنوات ترملت بعد أن أنجبت وحيدتها «وردة»، وكأن التاريخ يعيد نفسه فـ»وردة» ابنة «حمدية» هي الأخرى تزوجت في نفس المنزل من «كريم العبد»، وتعيش هي وزوجها مع أمها في نفس المنزل.

«حمدية» كانت تمارس مهنة أمها كداية، مع الوقت تقلص دور الداية فالنساء بالقرية أصبحن يلدن عند الطبيب، ولذا كانت تقضي معظم وقتها في الجلوس على عتبة الباب تراقب الداخلين والخارجين من حارة الخياط، وفي الصباح سمعت طرقًا شديدًا على الباب، تحركت «حمدية» لفتح الباب مسرعة فربما كان الطارق يريد شراء ملابس بالقسط من ابنتها «وردة»:

- حمدية: مين؟
- شربات: أنا شربات خدامة الهانم صاحبة السرايا الجديدة.
- حمدية: أيوه الهانم اللي ما حدش عارفها؟
- شربات: بكره الكل يعرفها.

- حمدية: خير يا حبيبتي تكوني عاوزة تشتري هدوم بالقسط من وردة بنتي؟ هي مش هنا تعالي بكره.

- شربات: مش عاوزة هدوم ولا حاجة الهانم هي اللي عاوزاكي بالاسم.

- حمدية: (بدهشة) طيب ليه؟

- شربات: تعالي معايه وإنتي تعرفي.

تخرج معها «حمدية» بقلق فهي لا تعلم من هي تلك المرأة أو ما تريد منها؟ ربما الفضول دفعها إلى الذهاب لترى السيدة التي أصبحت حديث القرية واشترت أرض العمدة والسرايا معا، ذهبت لتشفي فضولها وتعرف الحقيقة أو على الأقل لترى السرايا التي طالما حلمت بدخولها منذ الصغر دون جدوى.

١٥- المفاجأة

دخلت «حمدية» السرايا، وأخذت تتطلع فيها من كل جهة، وقد أبهرها جمالها، تذكرت أيام شبابها عندما كانت تتمنى دخولها، تذكرت حديث صديقتها «غزلانة» عن السرايا، وعن أمنية دخولها ولو خادمة، لا تدري لماذا تذكرت «غزلانة» ربما لأنها لم تشاركها إلا في هذا الحلم البسيط.

تدخل سيدة أنيقة تفوق في هيبتها هيبة المرحومة «عفت» هانم زوجة العمدة «عطوان المر» وجمالها رغم تقدم السن يعلن عنٍ نفسه ويسبق خطواتها، تحني «حمدية» رأسها إجلالاً لسيدة السرايا، ولكن الغريب أنها تنظر إلى «حمدية» دون كلام، المفاجأة أن هذه المرأة هي «غزلانة» صديقتها، و«حمدية» لا تستطيع أن تتعرف عليها:

- حمدية: (بخنوع ورهبة) تحت أمرك يا هانم.
- غزلانة: (بثقة المنتصر وابتسامة المتفاخر) مش فاكراني؟
- حمدية: (بدهشة وحيرة) أنا عمري ما شوفتك قبل كده يا هانم.
- غزلانة: (تضحك بفخر وانتصار) طيب ركزي شوية.. مش ح أحيرك أكتر من كده أنا يا ستي صاحبتك «غزلانة» إفتكرتيني يا حمدية؟

المفاجأة تعقد لسان «حمدية» ولكن «غزلانة» تتقدم نحوها وتحتضنها وتسلم عليها بحرارة، كل منهما يتفحص الآخر، ما زال الذهول يربك «حمدية» فهي لا تعرف كيف أصبحت تلك الماجنة من الهوانم؟ أو كيف أصبحت بهذا الثراء؟ تتأكد أنها هي، بعد الترحاب أمرت «غزلانة» خادمتها «شربات» بأن تطوف بها السرايا كي تتعرف عليها ثم تعود بها فهي تعلم أن تلك كانت أمنيتها، مشت«حمدية» بتثاقل بجانب الخادمة تتفقد السرايا، وهي لا تكاد أن ترى من الذهول والدهشة.

في الماضي كان حلم رؤية السرايا هو أقصى حلم تصبو إليه «غزلانة»، حتى أن ذاك الحلم كان جموحًا وشططًا، ماذا تغير؟ كانت «حمدية» تدرك أن المعادلات الاجتماعية بالبلدة تغيرت، ولم تعد تسأل لماذا انحدرت قمة الهرم إلى أسفل وارتفعت قاعدته إلى عنان السماء؟ فما دامت في ذيل الصاعدين ولو كجرذ يتلقى فتات جرذان أصبحت كالحيتان لا يعنيها الأمر في شيء، تعودت أن تلملم ما يسقط من أفواه الغربان، وتمرست أن تسلم الراية لمن يصعد ولو كان هذا الصعود فوق جماجم البشر، وأصبح واقع الحال أغرب من الخيال!

بنشوة المنتصر جلست «غزلانة» تستعيد شريط الذكريات، وتتذكر حالها منذ أن غادرت القرية طريدة، فبعد أن استقلت القطار هاربة خشية من افتضاح أمرها، لأنها كانت السبب في قتل الفتى «نور»، هبطت إلى العاصمة مع الضحى وقبيل الظهيرة بقليل، لم يكن هناك مكان يستقبل الفارين من الفقر والثأر والجريمة سوى

ضواحي القاهرة وأطراف الجيزة، وقد ساقها القدر نحو ضاحية إمبابة، وبمساعدة أولاد الحلال استأجرت غرفة مهدمة فوق سطح إحدى العمارات القديمة بمنطقة إمبابة.

في البداية افترش زوجها «محجوب» الأرض ليعمل حلاقًا ليقص شعر عمال الترحيلة والفقراء، عرف «محجوب» النقود لأول مرة، فقد كان يحلق رؤوس الفلاحين في القرية مقابل أقداحًا من الحبوب يحصل عليها في مواسم الحصاد، كان يأخذ عن كل رأس يحلقها ثلاثة أقداح من القمح أو الذرة، وتقوم زوجته بعد ذلك ببيعها لتشتري ما يلزمها من أغراض.

من بعد طول حرمان اشتعلت شهوة جمع المال لدى«غزلانة» هي الأخرى فهبطت إلى الشارع في قارعة الطريق أمام إحدى المدارس الإعدادية لتبيع الحلوى والبسكويت، تذوقت طعم الربح من خلال البيع والشراء.

تطور الوضع رويدًا واستطاعت «غزلانة» أن تؤجر محلًا للبقالة، وكما أغراها الشيطان في الماضي أن تسرق الأسماك، أغراها الربح السريع، فأصبحت تتاجر في المخدرات. ذاع صيتها في المنطقة واستطاعت أن تكون شبكة من العلاقة مع المنحرفين من المخبرين وبعض أمناء الشرطة وتجار الصنف.

بعد فترة من الزمن ترك زوجها «محجوب» مهنة الحلاقة وبدأ يعمل كمساعد سمسار في بيع العقارات فحبه للمال يدفعه إلى الأمام بسرعة تفوق ذكاءه،

وخاصة أن هذه المهنة تحتاج في بعض الأحيان إلى نوع من اللامبالاة أو التنازل الشكلي عن بعض الاستقلالية، وهو كان يمتلك تلك الخواص بجدارة.

يمر عام تلو آخر ويذوب الزوجان في القاهرة ويتغير الحال ليصبح محجوب من رجال المال وتصبح «غزلانة» امرأة أخرى، ساعدها جمالها في اقتحام عالم المخدرات وأدركت منذ البداية أن أنوثتها هي مفتاحها لعالم الرجال، فتمرست أن تقدم رشاوى جنسية تارة ومالية تارة أخرى، متي كان ذلك يعود عليها بالمال أو المصالح.

لقد تعلمت كيف تتكلم، ومتى تصمت، ومتى تشعل الغيرة أوالرغبة في قلوب الرجال، طرقت بيوت الأزياء الراقية لترتدي ما يجعلها قطعة نار مشتعلة تلهب الرغبات، وتعلمت من المدنية الحديثة كل المظاهر الخداعة، كان شكلها الرائع، وجسدها الممشوق يتحركان خلف قلب متشح بالسواد، بلغة الإغراء، وبالسماح للنافذين بالمرور فوق اللحم الرخيص استطاعت أن تغزو عالم العقارات، لتحصل على أراض شاسعة بالمدن الجديدة.

انتقلت إلى مستوى اجتماعي آخر يقاس فيه البشر بحجم المال بغض النظر عن مصدره، وما كاد عام ٢٠٠٠ يمر إلا و«غزلانة» تقيم في فيلا فاخرة بمدينة القاهرة الجديدة، وأرصدتها السائلة بالبنوك تتجاوز ١٠ ملايين جنيهًا، بخلاف العقارات والأراضي، ورغم هذا الثراء مازالت القرية تعيش بداخلها والحنين يدفعها إلى العودة ولكن كيف تمهد لتلك العودة؟

كانت تتابع أخبار القرية بنهم ، وتتابع كل كبيرة وصغيرة فيها ، وعزمت ألا تعود إليها إلا بعد شراء سرايا العمدة، وبدأت تخطط لذلك الهدف جيدًا، كانت ترسل المحامي «أشرف زهدي» بعد أن جندته بالمال ليعمل لحسابها كي يشتري لها الأراضي التي يبيعها العمدة المسرف في الكيف والولائم، ولم يدرك أحد من القرية أو العمدة ذاته أن نصف الأملاك التي بيعت هي لـ «غزلانة»، ربما كانت الأموال التي تدفع مقابل الشراء تجعل من الجنون أن يربط أحد اسم «غزلانة» صاحبة الأملاك بـ «غزلانة» الطريدة الحافية زوجة الثور البارد «محجوب»، فالأمر لا يتجاوز التشابه في الأسماء.

كانت «غزلانة» تشعر في قرارة نفسها بالدونية والنقص، وتصورت أنها بالمال تستطيع أن تصنع الغد، وأن صورتها الوضيعة سوف تتغير عندما تصنع لنفسها واقعًا جديدًا على أنقاض ممتلكات عائلة «عطوان المر» الأرستقراطية، ورغم أنها الجانية والظالمة والقاتلة كانت تريدٍ أن تنتصر لجرمها لتسيطر على القرية بكاملها بدلًا من أن تظل بعيدة أوتنزوي خجلًا من فجورها، هكذا دائمًا تعود المجرم أن يحوم حول مكان جريمته.

وكانت تخطط لتنجح؟ وكثيرًا ما كانت تزج ببعض النسوة الساقطات في طريق العمدة أو بعض المدمنين لدفع العمدة «عطوان المر» إلى الانجرار نحو طريق الإدمان فتلك هي وسيلتها الوحيدة لشراء السرايا. وعلى الرغم من امتلاكها لأكثر من فيلا عصرية

تفوق السرايا في الروعة إلا أن الحصول على السرايا كان حاجة نفسية تلح عليها باستمرار.

عادت «حمدية» بعد طوافها بالسرايا لتجلس مع «غزلانة» التي رحبت بها كثيرًا، وانصرفت لتذيع نبأ المرأة المجهولة في القرية بأكملها، في البداية لم يصدق أحد أن تلك السيدة هي «غزلانة» وأن هذا الرجل الأنيق هو «محجوب» الحلاق وهذان ولداهما «جابر» و «حامد».

قاوم العمدة أكثر من مرة فكرة بيع السرايا ولكن الوقوع تحت تأثير الإدمان سهّل مهمة البيع وبعد البيع انتقل العمدة للعيش في بيت الخادمات، فهي من دفع بـ «أشرف زهدي» في طريق العمدة وهي من دبرت لعملية جر العمدة نحو الإفلاس ونجحت في ذلك.

أدرك العمدة «عطوان المر» أنه قد وقع في فخ نصبته له «غزلانة» وأن «أشرف زهدي» كان ذراعها في نصب ذاك الفخ، وهنا كاد أن ينفجر حسرة على تبديد أملاك العائلة، طارت تلك الأخبار إلى القرية في لحظات وتمدد العمدة «عطوان المر» على سريره يصارع الموت كمدًا.

أحضرت «فكيهة» له الطبيب وحاولت هي وزوجها «عباس» تهدئة روعه والتخفيف عنه، فلم يعد له زوار، فقد انصرف عنه أهله، أخيرًا أدرك العمدة أن الفتى «نور» لم يكن هو الذي يهدد سطوته ونفوذه فمن سرق هيبته «غزلانة» تلك المرأة الآثمة و«شاهين الوزان»، تملكته أحاسيس متضاربة وكانت دائمًا صورة

«نور» تطارده فى أحلامه وكان دائمًا يذكره تارة بالعطف وتارة بالغضب فعندما كان حيًّا كان يغار منه وعندما مات تسبب في حرمانه من ابنه «شوكت» وهو نائم على هيئة المحتضر تتجلى له صورة نور وهو يرتدي جلبابًا أبيض هادئًا مستقرًّا يخاطبه:

- نور: أديك بعت كل حاجة مش أنا اللي كنت بهدد مستقبل شوكت.

- العمدة: لأّ لأ....إنت.

- نور: إزاي؟

- العمدة: حتى بعد ما اتقتلت, شوكت جري ورا حلمك.

- نور: شوكت جرى ورا الخير ورا العلم، وأنت جريت ورا المخدرات.

- العمدة: بسببك.

- نور: لأ بسبب غرورك.

- العمدة: عايز شوكت يا نور, رجع لي شوكت.

- نور: شوكت راجع يا عمدة.

- العمدة: (يستيقظ العمدة في حالة سعادة غامرة وهو يردد) شوكت راجع.

- فكيهة: (بدهشة) ربنا يرجعه بالسلامة.

تحسنت حالة العمدة فهو يرى أن تلك هي البشارة فـ«نور» كان طاهرًا ولا يأتي إذا كانت روحه قد

استشعرت بعودة «شوكت» ولكنه فجأة يعود للاكتئاب من جديد، لقد تذكر أن بيع السرايا سوف يضعه في موقف قاس مع ولده لم تبق هناك أراض، ضاع العز والترف والمال لم يبقٍ سوى بيت الخادمات «شوكت» عندما يعود سيجد رجلًا فقيرًا مدمنًا للهيروين منبوذًا لفقره بعد أن كان مقصدًا لكل الطامعين والخائفين من جبروته، مع الشوق الجارف لرؤية ولده انتابته رغبة في الموت خوفًا من المواجهة، فالسرايا هي ميراث عفت هانم وملك «شوكت» وقد تنازلت له عنها قبل موتها بعقود رسمية ولكن العمدة باعها دون علمه ولن يجدها حين يعود.

تيقنت «فكيهة» من قرب عودة «شوكت» فقد ذكر لها في أحد خطاباته أنه عائد وقص عليها ما دار بينه وبين «كاترينا» وهي الأخرى لا تدري إن كانت تفرح أو تبكي فربما تكون عودته مقترنة بالطلاق من زوجته، وهذا سوف يحرم «شوكت» من أولاده فهم حاصلون على الجنسية البريطانية، كثير من الأفكار يدور بخلدها هل سيأتي للقرية ليعاني من الوحدة مثل أبيه ويعيش في بيت الخادمات بينما تعيش «غزلانة» وزوجها الحلاق في السرايا، و «شاهين بن الوزان» قد احتل موقع أبيه العمدة، ولم يعد له سوى حلم «نور» في علاج المرضي، تنهدت «فكيهة» بعمق وأصبحت تشفق على العمدة وابنه وعلى نفسها فهي من تحمل همهما وفاء وعرفانًا.

١٦- العودة

انطلقت النسوة توزع اللحوم على أهل القرية، وعندما طرقت امرأة منزل «سيد حافظ» أخو «نور» خرجت زوجته «بدوية» على أصوات الطرق، فوجدت من تمد يدها تناولها لفافة من اللحم :-

- المرأة: خدي فضلت خيرك «غزلانة» هانم بعتالك اللحمة دي

- بدوية: غزلانة هانم؟ هي الخاطيه, سرّاقة السمك بقت هانم؟ لا يا أختي حد الله بيني وبين حاجتها.

- المرأة: ليه كده البلد كلتها خدت.

- بدوية: روحي يا حزينة من قدامي لحمتكم متغمسة بدم «نور» ابن أبوكي «حافظ» الله يرحمه.

هنا ذهلت المرأة وتذكرت كل شيء، فرغم مرور أكثر من ثلاثة عقود تغيرت فيها معالم القرية لم ينس أحد حادثة «نور» انصرفت المرأة وهي في خجل مما فعلت، فهي تصرفت بعفوية دون تفكير فـ«نور» مازال الميت الحي، وحين تظهر صورته يتلاقى مع أحبابه يذكرهم بحلمه النبيل ويظهر لأعدائه ينذرهم بسوء العاقبة، حتى في لحظات احتضار أبيه العم «حافظ» كان يضحك وهو يردد اسمه، وحين كانت أمه

«فوزية» تحتضر كانت تبتسم وهي تحاوره كانت صورته بشرى لوالديه وصوته يناديهما لعالم ليس فيه كذب أو غدر وعندما تزوج «سيد» وأنجب من «بدوية» أول طفل أطلق عليه اسم» نور سيد حافظ» وأصبح ذاك الفتى ذكرى خالدة في القلوب الطاهرة.

لقد ولي الزمن الجميل وانتشرت البطالة بصورة أكبر مما كانت عليه ولولا أن «بدوية» وزوجها «سيد» قد استطاعا في رحلة شقاء وكد مرير شراء فدانين لكانوا في عداد الضائعين، لقد تجاوز عمر ولديهما ٢٧ عامًا لم يعملا رغم حصولهما على مؤهلات عليا، كذلك «نور بشندي» ابن «عناكب» جاوز ٣٠ عامًا بدون عمل ولولا معاش أبيه الذي تصرفه أمه لكان في فريق المحطمين، ولو ماتت «عناكب» لتشرد «نور بشندي» فالمعاش باسمها وهو منذ حصوله على بكالوريوس تجارة يجلس عاطلا بدون عمل.

اليوم هبطت طائرة «شوكت» بمطار القاهرة، ثم استلم سيارته من قرية البضائع واستقلها ليعود إلى القرية ورغم أنه قد جاوز الخامسة والخمسين إلا أنه يذكر كل شبر فيها يذكر بيوتها وشوارعها وأزقتها، كان يقود السيارة بسرعة فائقة فالشوق يدفعه دفعًا لرؤيتها فهي عروس أحلامه ونهاية مقصده، كانت صورة أصدقاء طفولته تهدهد ذكرياته وذكريات السرايا وعبق أمه في أركانها يناديه فهو كالطفل الذي ينتظر بهجة العيد.

لفت نظره في رحلة العودة التغيير في المجتمع، وتذكر أن القاهرة لم تكن بنفس الزحام حين غادرها إلى بريطانيا عام ١٩٧٧ كل شيء قد تغير والمباني العشوائية على أطرافها قوضت جمالها، وكلما أزعجته تلك المناظر كان يسرع للعودة إلى قريته ليلقي بنفسه بعد طول عناء في حضن الريف الجميل.

ولكن بعد أن غادر زمام العاصمة وجد أن الطريق الزراعي هو الآخر قد تحول إلى ما يشبه الطريق الخرساني فالمباني متراصة ومتلاحمة، والبلاد والقرى تكاد أن تتلاصق مع بعضها البعض ربما شوقه إلى العودة لم يجعله يفكر كثيرًا في تلك المتغيرات التي حدثت للطبيعة الزراعية، وعندما اقترب من القرية وجد الطريق الترابي مرصوفًا ولكن معالمه مشوهة كأنه مسخ وكله مطبات وحفر، فلا هو مرصوف تستقيم الحركة عليه أو ترابي يدفع السائق إلى الحذر والتروي.

ظن «شوكت» أنه قد أخطأ الطريق إلى القرية فالمعالم تغيرت، ولا يستطيع الاستدلال على قريته، بعد مراجعة الذاكرة جيدًا قد تأكد أن ذاك هو الطريق فبعض المعالم باقية، وربما تثبت من الواقع عندما شاهد منزل «بشندي» فهو كحاله من وقت أن غادر القرية، وكل ما تغير أنه أصبح منخفضًا نتيجة ارتفاع أرضية الشارع.

يمر «شوكت» بالشارع لا أحد يعرفه ولا هو يعرف أحدًا حتى دخل من البوابة الكبيرة أمام باب السرايا

أوقف سيارته وهبط منها يسترجع الذكريات، كان يوصي أمه وأباه دائمًا بغرفة نومه كي تظل كما هي، فبها بقايا ألعابه ومقتنيات عزيزة، شعر منذ أول وهلة أنه يريد رؤية أغراضه قبل أي شيء، وفي ذروة شوقه لحاضرة ميلاده يتقدم بضع خطوات نحو باب السرايا العتيق مفعمًا بالآمال، في لحظة مباغتة تخرج «غزلانة» من البوابة متسائلة من هذا؟ ظنها في البداية خادمة ولكن منظرها وطريقة لبسها لا تدل علة ذلك، كانت «فكيهة» ترقب الأمر من بعيد وعندما صدق حدثها أن القادم هو «شوكت» هرولت لتدارك الموقف قبل أن يتصادم مع «غزلانة» التي أخذت تحاوره:

- غزلانة: أيوة يا حضرت؟
- شوكت: (بلهجة الواثق) إنت مين؟
- غزلانة: أنا صاحبة السرايا.
- شوكت: (بدهشة) معقول حتى السرايا بعتها يا بابا!!

«فكيهة» تدرك الموقف وتتقدم بسرعة نحو شوكت مرحبة وتجذبه نحو بيت الخادمات وهو في حالة ذهول لقد تذكر تلك المرأة! ولكن كيف لـ«غزلانة» تلك المرأة الساقطة أن تشتري سرايا العمدة؟ ومن أين لها بتلك الأموال؟ ربما وقع الصدمة جعله ينسى شوقه لذكرياته، ينصرف مستسلمًا مع «فكيهة» إلى أبيه العمدة «عطوان» نظر إليه بعتاب وشوق واحتضن كل منهما الآخر ومع همسات العتاب انفجر الأب باكيًا، لأول مرة العمدة يبكي فهو قد بدد كل ما يملك حتى السرايا.

حاول «شوكت» تهدئة روعه وأدرك أن العمدة قد تعرض لمحاولة قذرة زجت به إلى طريق الإدمان وزادت مرارته عندما علم أن «غزلانة» هي من خططت لذلك فكما كانت هي السبب في قتل صديق طفولته «نور» بددت مجد أبيه العمدة، وأطاحت بهيبته في القرية من خلال دفعه دفعًا لإدمان الهيروين.

تأكد «شوكت» أن مهمته في القرية أصبحت أكثر صعوبة فهو قد عاد ليحقق حلمًا نبيلًا فلم يجد القرية التي يمكن أن تستوعب هذا الحلم، ولكن عزيمته لم تلن، ومازال مصممًا على هدفه، أدرك أن والده هو الأحق بالعلاج أولًا ووضع خطة لذلك، وبعد برهة من الوقت نهض على الفور وتفقد بيت الخادمات وأمر ببعض التغييرات ليقيم في الفناء الخلفي للبيت مستوصفًا كبيرًا به عيادة للجراحة وعيادة للرمد وعيادة باطنة وغرفة عمليات صغيرة.

بدأ في اليوم التالي من انتهاء التجهيزات وكان الكشف بالمجان، أثار ذلك غضب طبيب القرية «سمير عجب» فهو قد احتكر تلك المهنة وأخذ يردد الشائعات وينشر في القرية أن شوكت لم يحصل على بكالوريوس الطب وأنه يمارس المهنة بدون تخصص أو حتى شهادة.

بعد الأسبوع الأول انقطع أهل القرية عنه، ولم يعد أحد يتردد عليه، وهو لا يعرف ما هو السبب؟ ولكنه كان مشغولًا في علاج والده من الإدمان ولم يلتفت إلى ذلك ومرّ أكثر من شهر والحال على ما هو عليه ربما كان تحسن حالة العمدة نحو الشفاء التدريجي وتعافي

صحته هو شغله الشاغل وكانت «فكيهة» تساعده في ذلك بإخلاص.

شعر «شوكت» أنه لا يقدم شيئًا للقرية، وأن شهرته العالمية لم تصل إلى بلدته بعد، فأشهر جراح مصري في بريطانيا لا تعترف به القرية التي تغط في سبات عميق، وتصادف أن الفضائية المصرية علمت بوجوده في مصر فسجلت معه لقاءً على الهواء مباشرة من القرية، وكان اللقاء مفاجأة سارة للقرية، وخاصة عندما قص على الجمهور حكايته ووفاءه لحلم صديقه الراحل «نور حافظ».

انفجرت قصة مقتل «نور» من جديد كأنها حدثت اليوم وتجدد الاتهام لـ«غزلانة» من جديد وسقطت دعايا طبيب القرية «سميرعجب» وانكشف كذبه، وبدأ المرضى يتدفقون على المستوصف بكثافة وبدأ «عطوان المر» يشعر بعودة نفوذه، فأهل القرية الذين قاطعوه بدءوا في التودد إليه من جديد، ولكن هذا التودد يختلف عن سابقه لقد شعر فيه بنوع من التقدير والحب، شعر أن سطوة العلم أهم من نفوذ المال ارتفعت معنوياته، وانحصرت «غزلانة» في السرايا لقد كانت لعنة «نور» تطاردها وها هو «شوكت» يحمل تلك اللعنة ويقذف بها في وجهها.

اشتاق «شوكت» لصاحبه «نور» فقرر الذهاب إلى بيت العم «حافظ» وكان يمر في شوارع القرية الرئيسية إنها ليست القرية التي عاش فيها! لقد أصبحت عشوائية، المباني غير منسقة كل منزل له نظام مختلف

الشوارع شبه مظلمة لضيقها وشدة ارتفاعها، هذا بيت مكون من خمس طوابق وهذا من ٤ طوابق، والطوابق ليست بمنسوب واحد، حجبت المباني العالية الهواء عن المساكن، حتى الشوارع غير مستوية تعلو وتهبط من أمام منزل لآخر فكل من يجدد منزله يصر على أن يخرق النظام ويرفع بناءه مترًا أو مترين عن جاره فتارة يوازي الطابق الأول الثاني لمنزل مقابل، وتارة يتحول منزل هذا إلى بدروم.

ومما لفت نظره أنه رأى كثيرًا من الشباب يتسكعون أمام المنازل والنواصي، توقف «شوكت» حزينًا أمام حارة الخياط التي كان يحفظها عن ظهر قلب، ليست هي الحارة التي كان بها نور.

لقد تغيرت معالم المكان رغمًا عن لوائح البناء التي تحدد عرض الحارة بأربعة أمتار إلا إنها أصبحت مظلمة فالجميع بعد الدور الأول قام بعمل بروز (بلكونة) مترًا ليصبح اتساع الحارة من أعلى مترين فقط، ومع الارتفاع تغيب الشمس وتنتشر رائحة عطنة كأن قاع الحارة أصبح مستنقعًا راكدًا.

هذه ليست الحارة التي تركها فعلى الرغم من أن اتساعها في الماضي كان مترين أو مترًا ونصف المتر ولكن نظام البناء كان لطابق واحد وهذا يجعلها فسيحة ويجعل نور الشمس أو القمر يلامسان الرؤوس، أما اليوم فهي مسخ لم تعد حارة أو شارعًا أو حتى بدرومًا، لم يعد الهواء نقيًا كما كان.

شق «شوكت» الحارة حتى وصل إلى منزل صديقه

«نور» وجده كما هو، مازال بالطوب اللبن اقترب من الباب بدأ يتحسس الحائط ويشم رائحة «نور» تتصاعد من الجدران المتهالكة، كانت تسري في روحه أحاسيس زكية في هذا البيت كانت «فوزية» تلقمه ثديها ليرضع وينمو وسط هذا العالم، هذا المكان كان يأوي أمه في الرضاع وصديقه العزيز «نور»، تساقطت بعض الدموع من عينيه، وقف أمام الباب الخشبي يرفع يده بصعوبة ويطرقه خرج «سيد» شعره مخضبًا ببعض البياض تفحص كل منهما الآخر على الفور تعانقا وفي صدريهما يجيش الوفاء النادر، دخل معه «شوكت» وجلسا على كنبة بلدي.

شعر «شوكت» براحة لم يذق طعمها منذ عقود كل ركن في هذا المنزل ينم عن الذكريات الخالدة، بحفاوة وترحيب بالغ صمم «سيد» على أن يتناول الدكتور «شوكت» طعام الغداء معه، كانت هذه الدعوة هي منتهى أمل «شوكت» فقد كان للطعام في هذا البيت مذاق خاص، وبالفعل كما توقع أكل بنهمٍ ومتعة كما كان يأكل وهو صغير.

بعد الغداء طلبت «بدوية» بعفوية من «شوكت» أن يساعد ابنها «نور سيد» على العمل في بريطانيا فهو حاصل على بكالوريوس خدمة اجتماعية وتعلم مهنة سائق لودر، وكانت «عناكب» قد طلبت نفس الطلب منه لابنها.

ابتسم «شوكت» وطلب إعداد أوراق السفر فمهمة التشغيل سهلة وخاصة أن «ألبرت» والد «كاترينا»

زوجته يمتلك مصنعًا كبيرًا للمنسوجات الصوفية، لقد شعر «شوكت» بسعادة غامرة لأنه سوف يساعد ابن أخ (نور) صديق طفولته، بعد وقت لم يعلم ما هو انصرف «شوكت» إلى المستوصف ليمارس عمله، ويشرف على الأطباء الذين استعان بهم في تشغيله لعلاج أهل القرية.

علم «شوكت» أن «غزلانة» كانت تتعاون مع طبيب القرية ضده، فازداد غيظًا منها، فهي قد تسببت في قتل صديقه الصغير، وكانت وراء ما حدث لأبيه العمدة، واليوم تقذف بالشائعات ضده بل ضد الفقراء كيف له أن يعاقبها وينتقم منها؟

اتفق «شوكت» مع «سيد حافظ» أن يتولى بالنيابة عنه مهمة شراء كل المنازل التي باعها والده للفلاحين بسعر مضاعف وكانت هذه المنازل تحيط بالسرايا من ثلاث جهات ولا يوجد وجهة للسرايا سوى المسافة الفاصلة بين بيت الخادمات والسرايا ولجأ «شوكت» لذلك عندما علم أن عقد البيع حدد مساحة السرايا بنهاية البناء ومازالت المساحة الفضاء الفاصلة هي ملك أبيه.

كانت خطة «شوكت» مبنية على عزل السرايا تمامًا عن أي منفذ بشوارع القرية كي تصبح سجنًا، وبعد أن تمت عملية الشراء التي قوبلت بتهكم وسخرية نتيجة السعر المرتفع جدًا كانت الخطوة الباقية هي إقامة سور على نهاية أملاك أبيه ومن ثم تصبح السرايا بدون أي مدخل وكان نجاح ذلك يعتمد على شراء كل المنازل التي تحيط بها وبناء السور في يوم واحد حتى

لا يكونٍ هناك مجال لأي حل عرفي يفرض بعد مداولات مدخلًا للسرايا.

وفي ذات الوقت كانت «غزلانة»بسذاجة تخطط لبث فتنة جديدة لتشيع أن هناك علاقة آثمة بين «شوكت» و«فكيهة» لإجباره على مغادرة القرية وشراء باقي المساحة التي أمام السرايا وبيت الخادمات هو الآخر لكي تصبح هي وحدها سيدة القرية فهي تريد التخلص من شبح الماضي.

وفق المنطق لا يمكن أن تنجح تلك الترهات في النيل من طبيب كبير ذي هدف وعقيدة، بيد أن مستوي الجهل وضعف الثقافة يعدان مناخًا مثاليًّا لرواج أي شائعة، فعلى الرغم من أن القرية تعيش في بداية الألفية الثالثة شكلًا إلا أنها تفكر بعقلية أوائل القرن العشرين، الجهل كما هو والفقر كما كان والمرض تفاقم والمستقبل غامض.

١٧- المواجهة

كان «شوكت»ذو عقلية مرتبة ومنسقة، ولا يدع ثغرة يمكن لأحد الولوج منها إلا أغلقها، وربما كانت قراءته لسد كل الثغرات حصيفة فهو قرر ألا يدع «لغزلانة» فرصة للنيل منه أو النفاذ إليه خلسة، وتوقع كل الاحتمالات التي يمكن أن تأتيه منها الضربات، ولذا اتصل بزوج «فكيهة» وشرح حقيقة الصراع دون أن يفصح عن احتمال قيام «غزلانة» ببث شائعة بوجود علاقة بينه وبين «فكيهة» ولذا طلب منه أن تمتنع زوجته عن الحضور لخدمة العمدة مؤقتًا، فخطورة الشائعات أنها تعرقل حياة الأفراد أو تدمرها، وعندما يكون مستوى الوعي منخفضًا تكون الشائعات كالقنابل التي تنفجر لتدمر الأخضر واليابس.

أربك «غزلانة» انقطاع «فكيهة» عن الحضور لخدمة العمدة، وأزعجها مدى نجاح المستوصف وتزاحم المرضى عليه من كافة القرى المجاورة، فقد نمت شعبية «شوكت» وأصبح كالنجم نوره يصعد لعنان السماء، ويستحوذ على القلوب والعقول، تشتت عقلها فهي لا تجد مدخلًا لتدميره، وتنقلها بين القاهرة والقرية جعلها مشتتة بين التجهيز لصفقة مخدرات والاستعداد لمحاربة «شوكت»، كل ما فعلته أن جمعت بعض النسوة الساقطات واتفقت معهن على حبك مؤامرة لتشويه «شوكت» فبمجرد دخول «فكيهة»

إلى المنزل عنده سوف تكون مهمتهن الصراخ بصوت عال وسوف تتحرك بعضهن إلى القرية لنشر الخبر وتتحرك الأخرى لإبلاغ زوج «فكيهة».

وكانت الخطة أن ثلاث نسوة سوف يشهدن بأنهن شاهدن شوكت وفكيهة يقمن علاقة آثمة والباقيات ترددن الخبر في كل مكان كانت «غزلانة» تظن أن قضية الشرف في القرية مازالت تساوي عمر من أخطأ، كما حدث في الماضي مع زوجة «عطوة الحداد» منذ عقود.

نتيجة التحلل الاجتماعي والتغير في السلوك لم تعد حوادث الشرف ساخنة كما كانت في الماضي، ولكن هذا الأمر كفيل بتعريض سمعة «شوكت» للانهيار.

رتبت «غزلانة» مع بعض الصحفيين لنشر الخبر بمجرد حدوث الواقعة، وتحولت إلى وحش كاسر، لم يعد عندها قلب ولا مشاعر لقد أصبحت كالغول، وعادة من يطرق مجال تجارة المخدرات أن لا يعترف بأي قيم أو مشاعر.

تذكر «شوكت» أنه لم ير أصدقاء وزملاء الطفولة منذ عودته، فقد كان من المفترض أن يأتوا للترحيب به كما تقتضي الأعراف السائدة، ولكن مرور الوقت دون حضور أحد عززت لديه نزعة الفضول كي يراهم، ويعرف ماذا حدث لهم، كان بالقرب من بيت الخادمات على الجهة المقابلة مضيفة «شاهين الوزان» العمدة الجديد، في مساء ليلة خميس باردة توجه إلي المضيفة ودخل ليلقي السلام على العمدة الجديد:

- شوكت: إزيك يا عمدة «شاهين»

- شاهين: (ينهض بتمثيل يضمه بين أحضانه) مرحبًا بالدكتور الكبير اللي شرفنا كلنا

- شوكت: لقيتك ناسي أيام الطفولة قلت أفكرك

- شاهين: (بتلعثم) مشاغل البلد ما بتخلصش وكل يوم مشكلة أعذرني اتفضل استريح

- شوكت: (وهو يجلس) صحيح مشاغلك كبيرة يا دوب وقتك يسمح تروح لغزلانة أول ما توصل

- شاهين: (يرتبك) عندك حق يا دكتور

- شوكت: و لا يهمك.

يجلس «شوكت» ليستطلع الأمر، لعله يفهم بعض ما يدور بالقرية، فهو يعرف أن «شاهين» يُعين «غزلانة» عليه حتى يستقر نفوذه بالقرية، وهذا لا يشغله فمثل هذا النفوذ هش ولم يعد ذا بال ولكنه يريد قراءة المتغيرات بدقة، وفي أثناء الحوار دخلت امرأة حيزبون تذكرها هي «حمدية ابنة الداية «محبوبة» ومعها ابنتها «وردة» وقد جاءت تشتكي للعمدة زوجها «كريم العبد» وتطلب الطلاق لابنتها بسبب سوء معاملة زوجها، كان هناك فضول لدى شوكت لمعرفة تفاصيل تلك القصة، فظل جالسًا يتابع الأمر.

حاول «شاهين» أن يستطلع السبب فأخبرته «وردة» أنها تخرج لزيارة بعض صديقاتها فهي تبيع ملابس للنسوة بالتقسيط وتتأخر أحيانًا كي تجمع الأقساط،

وهذا يجعلها تعود ليلًا متأخرة، أرسل «شاهين» لزوجها «كريم» الذي جاء وقص حكايته هو الآخر، وذكر أنه ضبطها في أحضان رجل غريب أكثر من ثلاث مرات، وكان يتسامح معها من أجل أطفاله، بهت «شوكت» فرغم أنه قادم من الغرب بكل تحلله ولكن قريته التي غادرها منذ الصبا لم تكن تعرف التسامح من قبل في مثل تلك الحوادث.

الغريب أن «كريم» في نهاية جلسة المصالحة وافق على أن تذهب «وردة» لصديقاتها مقابل عدم الطلاق، كانت عيون «شاهين» تتابع تفاصيل جسد «وردة» بطريقة مكشوفة ومفضوحة فهو كأبيه زير نساء، وقد طلب من «وردة» أن تأتيه صباحًا كي يشرح لها كيف ترضي زوجها، الغريب أن «وردة» أدركت قصده، وكانت تلحن في القول بما يوحي بالاستجابة، و«كريم» قد أقنع نفسه أن العمدة ربما يعقلها حتى لا تخرج ليلًا، وربما ينجح في ذلك، فهذا الزوج فقد رجولته منذ أن أصبح عاطلًا، ويبدو أنه قد تعود على التنازل بالتدريج منذ أن بدأت «وردة» تنفق عليه، وتحت وطأة الحاجة فقد رجولته منذ أن فقد قدرته على إطعام نفسه ومن ثم لا يستطيع الاستغناء عنها فهي من تعول الأسرة.

ودع « شوكت» الحضور وخرج، وفي اليوم التالي مر على سوق الخميس، وشاهد الفلاحين يتكالبون على سيارة ربع نقل قادمة من المدينة عليها أطباق كرتونية تحتوي على البيض، تقف النسوة في طابور، والرجال في طابور آخر، هذه السيارة تأتي أسبوعيًّا

لبيع البيض في القرية، وفي الجانب المقابل سيارة أخرى تبيع الثوم المستورد من الصين، وبجوار السوق طابونة الحاج «حمدي» تبيع الخبز.

أدرك «شوكت»أن الحال في القرية تبدل فبعد أن كانت مصدرًا يورد السلع للمدينة أصبحت هي التي تستورد البيض والخبز والثوم، لفت نظره عدم سماع أصوات الطيور فوق المنازل، فكل ما كان يشاهده أطباقًا للدش تتدلى منها الأسلاك للتلفزيونات، والشباب طوال الليل يسهرون وعندما يستيقظون يتسكعون على النواصي، رغم التطور والكهرباء والتكنولوجيا والدش تبدل الحال هذه ليست القرية التي تركها.

وجد «شوكت» نفسه يتذكر صديق الطفولة «حمدي سويلم» فقد كان يحلم أن يكون مهندسًا زراعيًّا وبالفعل تم تعيينه بالجمعية التعاونية الزراعية بالقرية، دفعه الفضول أن يراه ودون سابق إنذار ذهب إليه، ولكنه فوجئ به يعمل كاتبًا إداريًّا يسجل العاملين في دفتر الحضور والانصراف، وجد العاملين يجلسون على المكاتب يشربون الشاي أو يقرؤون الجرائد، وشاهد أهل القرية يقفون في طابور ظنه في بادئ الأمر أنه حشد لاستلام الأسمدة أو البذور ولكنهم كانوا يشترون بطاطين ومراوح صينية بالتقسيط.

و بعد ترحاب حار على عكس استقبال «شاهين الوزان» وفي حوار دافيء أخبره «حمدي» أن الجمعية التعاونية لم يعد لها دور فعال في رعاية الأنشطة الزراعية وأن الدولة ألغت نظام الدورة الزراعية، والمهندس الزراعي

فقد بريقه ولا يجد أرضًا يشرف عليها أو يزرعها، كان حمدي يتألم من ذلك الوضع وخاصة أنه حاول الحصول على خمسة أفدنة في مشروع شباب الخريجين ولكنه فشل لأنها وزعت على المحاسيب وأهل النفوذ، هنا أدرك «شوكت» أن الكتل الخرسانية حلت محل القمح والذرة والقطن وأن القرية تغيرت وباتت مسخًا ودع «شوكت» صديقه بعد أن اتفقا على لقاء آخر.

قبل أن يصل إلى بيته سمع خبر وفاة «عناكب» هرول إلى هناك وأخذ يواسي ابنها الوحيد «نور بشندي» وتكفل بكل مصاريف الجنازة والعزاء، ولكنه مع سماع صوت المقريء وتداخل بكاء الابن حزنًا على أمه كان يسمع في ذات الوقت صوت زغاريد وزفة عروس، لم يستوعب الأمر وظن أنها أصوات تليفزيون عالي الصوت يعبث به طفل، ولكنه بهت عندما علم أن تلك الأصوات حقيقة وتنبعث من منزل جارتهم حسنات، فهي تحتفل بزفة ابنتها، لم يعد يتمالك نفسه من هذا التغير، كان يمكن التأجيل يومًا أو التغاضي عن إطلاق المزامير لحين وصول العروس إلى بيت زوجها في القرية المجاورة، كان «سيد حافظ» يلحظ تعجبه من الموقف المتناقض فهدأ من روعه وشرح له أن تلك الأمور باتت عادية عند قطاع كبير من أهل القرية ولم يعد هناك أحد يراعي مشاعر الآخر.

في صباح اليوم التالي قرر «شوكت» أن يستخرج ترخيص بناء السور على نهاية الأرض الفضاء أمام السرايا ومع بناء صيدلية ملحقة بالمستوصف، فهو ماض في خطته بجدية دون أن يعلم أحدٌ ماذا يبغي من

ذلك؟ ذهب إلى المجلس المحلي ودخل ليأخذ توقيع المهندس المختص على التراخيص، فجأة نظر المهندس إليه وفتح الدرج، لم يفهم «شوكت» مغزى ذلك، مرّ بعض الوقت وكل منهما ينظر إلى الآخر استشاط منه المهندس «رجب جودة» مدير الإدارة الهندسية غضبًا ونظر إليه بقرف:-

- رجب: فوت علينا بكره يا أستاذ؟

- شوكت: بكره ليه؟ الورق جاهز والرسومات كاملة يا دوب التوقيع!

- رجب: هى الحكاية كده بالسهل مش لازم دمغة

- شوكت: الدمغة قدامك على الورق

- رجب: (يضرب كف علي كف) يظهر مافيش فايدة فيك

أدرك «شوكت» أن «رجب» يطلب رشوة، فسبب له ذلك ما يشبه الزلزال، لم تكن تلك هي أخلاق الموظفين بالقرية قبل أن يسافر، ولكن المهندس «رجب جودة» بدأ يدقق في الاسم جيدًا من جديد هو «شوكت عطوان المر» هل هذا هو زميله ابن العمدة فقام «رجب جودة» يرحب به بحرارة وخجل:-

- رجب: إزيك يا شوكت آسف ما عرفتكش

- شوكت: حضرتك مين

- رجب: أنا رجب جودة ابن شيخ البلد زميلك في المدرسة.

شعر «رجب» بالخزي من صديقه، وعلي استحياء مد يده للسلام عليه، تبادلا السلام بفتور المتخاذل وحرارة الواثق، الصاعقة الكبرى جعلت «شوكت» يتساءل في نفسه عن سبب هذا التحول المريب؟ فـ»رجب جودة» كان يحلم أن يكون مهندسًا ليبني منازل الفلاحين، ولكنه أصبح موظفًا يرتشي من الفلاحين! ماذا تغير؟ هل ضاعت الأحلام الوردية؟ ولم يبق من حلم «نور» سوى المستوصف.

من جديد استطاع «شوكت» أن ينفذ لقلب صديقه القديم، بعد أن لمس بقايا الحلم في أعماقه، واجتهد «شوكت» في أن يجذب «رجب» من هوة السقوط، وتقابلا في المساء، وطلب منه المساعدة وأوكل إليه مهمة توفير مواد البناء والعمال، لم يفهم وقتها «رجب» مغزى إصرار «شوكت» على أن يكون البناء للسور والصيدلية في يوم واحد بل كان ما يدهشه هو ارتفاع السور إلى ٦ أمتار.

بعد تلك التغيرات عاد «شوكت» يجد نفسه لا يستهجن ميوعة «كريم العبد» زوج «وردة» الخائنة فربما كانت القرية كلها كريم، فمن يفقد القدرة على إنتاج طعامه يفقد شرفه، فالشرف ليس جنسًا فحسب بل هو فقدان للإرادة، يسير «شوكت» منكسًا رأسه وحزينًا على حال قريته، فالعمدة الجديد ليس له دور في إدارة شؤون بلده وكل همه شراء الأطيان واصطياد النسوة، لم يعد أحد يدرك أن منصب العمدة مسؤولية كبرى، فهو راعي القوانين المنظمة للحياة وقواعد العرف الاجتماعي، فالقرية آل حكمها من

إقطاعي مستبد ضرب بالقوانين عرض الحائط إلى أفاق ألعبان وأد ما تبقى من أخلاق.

بعد الانتهاء من البناء فطن «رجب جودة» تفاصيل الأمر وعادت «غزلانة» في اليوم التالي لتجد أن دخول السرايا أو العيش فيها ضرب من المستحيل، المساحة التي أمامها لا تتجاوز ٦٠ سنتيمترًا والمنازل التي حولها اشتراها «شوكت» السرايا أصبحت مقبرة لا يستطيع أحد الدخول إليها إلا وهو يسير بجنبه لا توجد تهوية أو مخارج، أدركت «غزلانة» أن الأمر يحتاج إلى سياسة وراحت تتفاوض مع «شوكت» حول شراء مساحة ٦ أمتار أمام السرايا وهو يرفض ويطلب استرجاع السرايا وهي الأخرى ترفض بشدة.

تحسنت حالة «عطوان المر» جرّاء العلاج من آثار الإدمان وما فعله «شوكت» أعاد إليه البسمة من جديد لقد انفرجت أساريره بنور الأمل عندما قام المحامي برفع دعوى بطلان عقود البيع لأن السرايا والأرض مسجلتان في الشهر العقاري باسم «شوكت»، و«عفت» هانم وثقت تلك العقود، وعقود البيع التي في يد «غزلانة» موقعة باسم العمدة «عطوان المر» وتلك هي الثغرة القانونية وكان قصد «شوكت» من بناء السور إغلاق مداخل السرايا حتى لا تستفيد «غزلانة» بها من جرّاء طول فترات التقاضي بالمحاكم، ومن ثم لا تستفيد من عنصر الوقت للعيش داخل السرايا.

علمت «غزلانة» من محاميها بأن عقد البيع باطل ولكن هي الأخرى رفضت الحلول الودية بإعادة السرايا

والأرض مقابل استرجاع أموالها وظل يحركها حقد دفين، لم يكن «شوكت» يعرف اليأس وزادت ثقته بأن القضاء سوف ينصفه وإن طال الوقت، فقد أودع محاميه ثمن السرايا والأرض التي دفعتها «غزلانة» للعمدة «عطوان المر» في خزينة المحكمة.

«غزلانة» تخطط للنيل منه وهو يخطط لإعادة حقوق والده التي سلبت بالحيلة، أما «شاهين الوزان» فيدرك أن نجاح «شوكت» في غير صالحه، ولذا كان يدعم «غزلانة» في الخفاء ليضمن الحفاظ على نفوذه فعودة «شوكت» تقوض مكانته الواهية، وفي رحلة التحدي قرر «شوكت» النزول إلى القاهرة للبحث عن أي دليل أو أوراق تدين «غزلانة» فهو قد علم أنها تعمل في تجارة المخدرات ويجب استغلال هذا الأمر في الصراع بيد أنه كان ينتظر لبعض الوقت لعله يعرف شيئًا جديدًا يفيده في هذا الصراع.

١٨- الشوق

منذ عودة «شوكت» إلى القرية زوجته «كاترينا» تعيش في لندن وحيدة، لتضربها مشاعر جارفة من الحنين لزوجها، تتأرجح بين الشوق إليه والرغبة في البقاء في لندن، وأخيرًا تأكدت أنها لن تستطيع الحياة بدون وجوده بجانبها، كذلك ولداه يحترقان شوقًا إليه، و«ألبرت» يفكر في طريقة تعيده لبريطانيا، وأصدقاؤه من الأطباء والممرضات في المستشفى يتمنون عودته.

كان «شوكت» يتصل أسبوعيًّا بلندن للاطمئنان على زوجته وأولاده، وكان «ألبرت» قد استجاب لطلبه بخصوص توفير عقد عمل في شركته لـ«نور سيد» و «نور بشندي»، ربما لفت نظره أن اسم «نور» مرتبط «بشوكت» في مصر وفي بريطانيا، استقبل «ألبرت» الضيفين في المطار ووفر لهما المسكن والعمل.

ظلت «كاترينا» دائمًا طوال فترة البعاد تغوص في ذكريات حبها لـ«شوكت» فقد تعرفت عليه وأحبته في الجامعة وتزوجته عندما عملت معه في المستشفي، وكان يكبرها ببضع سنوات، لفت نظرها إليه زهده في النساء وهذا الزهد لم يكن سوى زهد الفضيلة، فهى عندما تزوجته أدركت أنه رجل مكتمل الفحولة.

كان «شوكت» دائمًا يرفض تلبية الدعوات الخاصة

التي تدعوه إليها الطبيبات أو الممرضات، فالنسوة البريطانيات مهووسات برجال الشرق، فالشعر الأسود والعينان السوداوان والبشرة القمحية هي من أشد ما يجذب تلك النسوة، على اعتبار أن ذاك المظهر هو صبغة الشمس الدافئة التي حُرمْن منها في عاصمة الضباب، فربما يشعرن بدفء الشرق في أحضانه، «شوكت» لم يكنٍ مجرد رجل يشعل غرائز النساء فحسب بل كان عقلًا متفتحًا يبتكر الجديد في عمله، وقلبًا كينبوع يتدفق منه الحنان ليفيض على كل من حوله.

لم تنس «كاترينا» شهامته عندما تصدى لشابين مسلحين حاولا اختطاف امرأة لاغتصابها من أمام المستشفى، وبالرغم من وجود رجالًا يرقبون الموقف بتخاذل غريب ولم يكن يهمهم سوى الفضول في مراقبة عملية الخطف كمن يتابع مشهدًا في فيلم سينمائي، اندفع «شوكت» ملبيًا استغاثة يائسة في مشاجرة غير متكافئة لإنقاذ المرأة رغم أن المعتدين كانا يحملان أسلحة بيضاء، انتهت الوقعة بالقبض على أحدهما وفرار الآخر وأسفرت الموقعة عن شج صدر شوكت بجرح قطعي تمت خياطته بغرزتين.

لم يكن أحد من المتابعين لواقعة الخطف يرى أن هناك سببًا لأن يقدم إنسان بالتضحية بحياته من أجل امرأة لا يعرفها، أو قضية لا تخصه، ولكن تلك هي أخلاق القرية التي نشأ فيها، هذه هي الأخلاق التي انتقلت مع «شوكت» في لندن، والتي لم يجدها في قريته عندما عاد إليها.

كانت المرأة المخطوفة هي «ليندا» ابنة أحد أعضاء مجلس اللوردات وملكة جمال بريطانيا، وبعد الواقعة توطدت علاقتها «بشوكت» وأصبحت صديقة «كاترينا» فهي كانت قاصدة المستشفى لفحص عينيها من آثار حساسية طارئة.

«ليندا» أصبحت معجبة «بشوكت» ودعته إلى شقتها كي تعبر له عن امتنانها على الطريقة الغربية فما كان يريده الشبان منها عنوة سوف تعطيه له طواعية، فجمال «ليندا» لا يقاوم من غربي ولا شرقي فهي ملكة جمال يجري وراءها كل من تكتمل فحولته، كان رد «شوكت» على عكس ما توقعت فهي تريد أن تكافئه وهو قد عاهد نفسه على عدم الانجراف وراء نزواته شكرها واعتذر عن الدعوة، فقد كان اهتمامه الأول هو علوم الغرب وليست نساءه.

قصت «لندا» الأمر على «كاترينا» التي كانت قد تعلقت بالفتى الشرقي، فكتمت مشاعر الغيرة القاتلة في صدرها من دون أن تفصح عن مشاعر الغيظ تجاه امرأة تريد اقتناص حبيبها، وقتها ظنت أنه ربما يكون مريضًا بمرض جنسي وكعادة البريطانيات ناقشته في عرض نفسه على طبيب متخصص، ابتسم «شوكت» بثقة وأفهمها أنه لا يعاني من أية مشاكل صحية من أي نوع ولكن الإسلام يحرم مثل تلك العلاقات إلا من خلال زوجة:

- كاترينا: ولكني أرى مسلمين عربًا يأتون بريطانيا من أجل الجنس فقط

- شوكت: نعم هناك من هو ملتزم ومن هو متحرر

- كاترينا: هل ستكتفي بامرأة واحدة فقط

- شوكت: عندما أتزوج سيكون ذلك

- كاترينا: (بإعجاب) تزوجني فأنا أحلم برجل يكون لي وحدي

- شوكت: (يرتبك من المفاجأة) ليس كافيًا أن يكون ذلك سببًا للزواج يجب أن تعرفيني جيدًا وأعرفك أنا أيضًا جيدًا (لحظة صمت) دعي ذلك للزمن.

- كاترينا: (بخجل المرأة وشوقها) سأنتظر (تغلف وجهيهما بسمة مفعمة بالأمل).

تعيش «كاترينا»على ذكرياتها الجميلة مع «شوكت» لتحيا في وميض الذكريات، وتقضي الأوقات الطويلة تتقلب على السرير وحيدة تتلظى بنيران الشوق فهي لم تعد تحتمل بعاد شوكت، فهو كان يناقشها في كل الأمور ويشعل حماستها بالاكتشافات العلمية يؤثرها على نفسه في الطعام والشراب يداعبها بأرق الكلمات وأعذب الأشعار، كانت كلماته الرقيقة تملأ أذنيها، فهو كثيرًا ما كان يتغزل في شعرها وعيونها، وكان مفتونًا بتناسق جسدها الرائع، تلك العذوبة والرومانسية هي ما تفتقده، وتدرك أنها لن تجد لها طعمًا مع أي شخص آخر، ولن تقبل عنه بديلًا.

تعودت مع «شوكت» علي أن تسهر على ضوء الشموع والموسيقى الشرقية لقد أحبت الفن المصري وتعلقت

بالمطربين والمطربات العرب عرفت «أم كلثوم» و«محمد عبدالوهاب» و «عبد الحليم حافظ»، وغيرهم أصبحت شرقية الهوي وإن كانت غربية الجذور، لم تنم ليلتها تذكرت يوم الزفاف حين حملها بين يديه منذ أن دخل الفندق حتى غرفة الإقامة وقتها كان كل من في الفندق يصفق لهما.

تذكرت كيف كان يعاملها عندما حملت بطفلها الأول، كان يقوم هو بكل شيء وعندما جاءها المخاض ظل بجوارها يبكي لآلامها بحنان الأم في صورة لم ترها في رجال لندن من قبل، لم تشعر كاترينا وقتها وهو بجوارها أنها فقدت أمها، وعندما جاء طفلها الثاني كان على نفس الحال.

تمر الأيام والوحدة ثقيلة و «كاترين» شاحبة تعاني من لوعة الفراق والبعاد، تأكدت أنها لن تستطيع أن تعيش بدون «شوكت» كان «ألبرت» يلاحظ حال ابنته ويعلم أن «شوكت» لن يتراجع عن قراره ولكنه كان يجتهد في إيجاد حل.

طرح «ألبرت» اقتراحًا على «كاترينا» بأن يعمل «شوكت » ١٥ يومًا في لندن و ١٥ في مصر، رحبت «كاترينا» بهذا الاقتراح وعرضته على المستشفى، فتعهدت بتحمل نفقات تذاكر الطيران ذهابًا وإيابًا حال قبول «شوكت»، على أن تكون فترة بقائه في لندن مخصصة لإجراء العمليات الكبرى، وربما كان هذا هو الأنسب حتى يحافظ شوكت على أسرته، فرسالة الطبيب عمومًا رسالة إنسانية، ولا علاقة لها بجنسية المريض أو لونه أو دينه، كان ذلك العرض يمثل بصيصًا من الأمل ومنتهى غاية الأسرة.

أشرق في عين «كاترينا» و «ألبرت» وهج الأمل، ولكن هل يقبل «شوكت» بهذا العرض؟ اقترح «ألبرت» على ابنته أن تذهب الأسرة إلى مصر لعرض الأمر عليه، والتعرف عن قرب على تلك البلاد وعلى تلك القرية التي ولد فيها زوجها، تلقفت «كاترينا» هذا الاقتراح بحماس شديد ربما كانت تريد من يدفعه إليها لتزيل عن نفسها التردد والحرج فهي قد فكرت في ذلك من قبل، لاقى هذا الاقتراح موافقة الجميع، فأهم ما أسسه «شوكت» في لندن هو صناعة أسرة يربطها الحب والإخلاص، وقام «ألبرت» بتحديد موعد السفر وحجز التذاكر.

لم يكن «شوكت» أقل حالًا من «كاترينا» فهو يذكرها كل مساء ويشتاق لولديه ولـ«ألبرت» وعندما وصله تلغراف بموعد قدوم أسرته قلبه طار فرحًا من السعادة، فلم يكن يتوقع تلك المفاجأة السارة، ولم يكن العمدة «عطوان المر» قد جرب فرحة لقاء الأحفاد، فتلك المفاجأة كانت بالقطع سارة للجميع، وبدأ الاستعداد لاستقبال الأحباب الأعزاء على قدم وساق.

١٩- الفجر

قبل موعد وصول الأسرة بيوم هبط «شوكت» إلى القاهرة، والتقى بمساعد وزير الداخلية للشئون القانونية اللواء «أحمد فهمي»، إنه يعرفه منذ أن أجرى له جراحة توسيع صمام القلب في لندن منذ عامين، رحب اللواء بـ«شوكت» ترحيبًا شديدًا.

- اللواء: زيارتك غالية علينا يا دكتور

- شوكت: أشكرك يا افندم

- اللواء: شوف حضرتك تشرب العصير وبعدين نخرج نتغدى سوى

- شوكت: (شوكت مازحًا) أنا ليّه عندك كذا عزومة.

يشرب شوكت العصير، ويخرجان سويًا إلى مطعم فخم لتناول الغداء، فكثيرًا ما كان الدكتور «شوكت» يدعوه لتناول الغداء في لندن، وأحيانًا كان يفطر معه في المستشفى، وكان «ألبرت» و «كاترينا» يرحبان به كثيرًا على اعتبار أنه مصري وقتها لم يشعر اللواء «أحمد فهمي» بالغربة خلال رحلة علاجه.

بعد تناول الغداء قص «شوكت» عليه أمر «غزلانة» كيف أنها دمرت أباه العمدة «عطوان المر» ودفعته لإدمان الهيروين وما تلى ذلك من أحداث، وسرد عليه

سمعتها في تجارة المخدرات، كان اللواء يسمع باهتمام شديد وقد فطن أن باعث «شوكت» جرّاء هذا البلاغ هو المصلحة العامة وحماية المجتمع، وليس الانتقام، فالمخدرات تهدد الأمن القومي لأي بلد، ولكنه توجس أن «غزلانة» ربما تكون شريكًا لأحد السياسيين في تلك التجارة، وبعد انتهاء اللقاء وفي اليوم التالي عرض اللواء الأمر على وزير الداخلية، ووضعت «غزلانة» وأسرتها تحت رقابة صارمة من الداخلية وخاصة عندما تدخل الوزير أصبحت هذه القضية تشغل قطاع مكافحة المخدرات بالوزارة ومكتب الوزير يتابعها باستمرار.

كانت «غزلانة» في الفترة الأخيرة تتصرف بحذر شديد فهي تريد أن تحافظ على وضعها الاجتماعي وسلامتها، فخطأ واحد سوف يزج بها إلى غرفة الإعدام أو السجن لتقضي باقي عمرها بعيدًا عن تلال الأموال التي جمعتها، ولذا أوكلت مهمة تجارة الهيروين لزوجها «محجوب» فلو سقط لا توجد مشكلة فهو مجرد زوج لا تطيق معاشرته ولكن ميزته أنه لا يحاسبها على أي شيء تقوم به، تمرس «محجوب» في الاتصال بالعملاء والموردين لتوزيع المخدرات، وأصبح يجيد عمليات التمويه والخداع.

ولكن طمعه وغباءه المعهود دفعه إلى الاستعانة بابنيه لتوفير المبالغ التي يمكن أن يحصل عليها المهربون في تجارة الصنف، فقد طفح غباء الحلاق الذي يقطن في أعماقه على قراراته، واستغل «محجوب» طيش الشابين وحماسهما ورغبتهما في الثراء السريع لإشراكهما في نقل المخدرات الواردة، بعد أن اتفق مع ولديه على

إخفاء هذا الأمر عن «غزلانة» لأنه يعلم أنها سوف ترفض بشدة.

وهداه تفكيره إلى أن يغير أماكن التسليم والتخزين وخاصة بعدما شعر بتضيق الخناق عليه وكانت الصفقة قادمة من سيناء عبر سائح كندي اتفق مع الوسيط على أن يكون التسليم على ظهر سفينة سياحية في النيل تبحر من القاهرة إلى القناطر وبعدها سوف تنقل البضاعة في قارب صيد بموتور لضمان السرعة والتمويه وكان المكان الجديد بعيدًا عن أعين الشرطة وربما يستخدم لأول مرة في التهريب، يقع مكان التسليم والتسلم أسفل جميزة العم حافظ بقرية الجزيرة الغربية، وسيكون المستلم للبضاعة هو «جابر» وأخوه الأصغر «حامد».

كان «شوكت» قد نجح في عرقلة استفادة «غزلانة» وزوجها من السرايا منذ بناء السور أمامها مما جعل عملية الدخول والخروج منها شبه مستحيلة، ولذلك استعان «محجوب» بصديق الأسرة «شاهين الوزان» لشراء بيت جديد خارج الكتلة السكنية وقريب من النهر على فرع رشيد، ولم يتم العثور إلا على منزل يطل مباشرة على ترعة جانبية بينه وبين النهر مسافة كيلو متر، وقد تم الشراء على اعتبار أن هذا المنزل سيكون المخزن الجديد للهيروين، وعد «شاهين الوزان» بعدم إخبار «غزلانة» بأمر هذا البيت فقد ظن أنه سيكون ملتقًى لاستقطاب بعض النسوة وربما يشارك محجوب فيهن مستقبلًا.

كانت تحركات «محجوب» وولديه مرصودة من قبل

الشرطة، ولم تكن «غزلانة» تعلم بذلك ولو علمت لرفضت فهي تحب ابنيها وتخاف عليهما بشدة، ولا تريد أن تكون القرية محلًا لتجارتها، فهي الأخرى قد اشترت منزلًا جديدًا فخمًا كان يقطنه أحد الأعيان في شمال القرية على مقربة من محطة السكة الحديدية.

ابتسم الزمن للقرية البائسة، وانخرط الأطباء في العمل داخل المستوصف الطبي وانضم بعض شباب القرية العاطلين للمشروع، وأصبحت الإدارة مكونة منهم، فلأول مرة يشعر المتسكعون أن هناك من يفكر من أجلهم دون مقابل، البعض وضع أمله على شوكت كي يساعده في السفر أسوة بمن سافر إلى لندن، والبعض الآخر كان يؤمن بفكرة الاستمرار في القرية لتطويرها، كان شوكت يدرك أن المشاكل القائمة أكبر من قدرة فرد، انضم إلى القافلة بحماس صديقاه «حمدي سويلم» والمهندس «رجب جودة»، وكل الأصدقاء القدامى لقد عادت في الضمائر الميتة نسائم الحياة من جديد، وانبعث الأمل في النفوس وقد أصبح الحلم قابلًا للتحقيق.

لم تكن فكرة المستوصف تروق لطبيب القرية ولم يكن «شاهين الوزان» راضيًا عن سقوط نفوذه و «غزلانة» تقطر حقدًا على «شوكت» هذا الفريق كان دائمًا ما يجتمع للنكاية في «شوكت» وبعضهم أرسل شكاوي لوزارة الصحة بحجة أن المستوصف بدون ترخيص والبعض الآخر بدأ يبث الشائعات ولكن دون جدوى فكل لحظة تمر يتكاتف الناس حول «شوكت».

في صباح يوم الخميس عاد «شوكت» مع أسرته القادمة من لندن، وبمجرد أن وقفت السيارة أمام المنزل انطلقت الزغاريد تستقبل الأحفاد، هبط «شوكت» ومعه «كاترينا» و «ألبرت» وولداه «نور شوكت» و «نبيل شوكت» كانت فرحة العمدة «عطوان المر» بحفيديه لا توصف ربما شعر بفرحة لم يتذوقها من قبل، واستقبلهم أروع استقبال.

مع الوقت اندمجت «كاترينا» مع «شوكت» فيٍ المستوصف وكان خبر وجود طبيبة بريطانية عاملًا آخر في ازدهار سمعة المستوصف، كان الفلاحون يتدفقون للكشف وكانت النتائج جيدة، بينما اندمج «ألبرت» في لعبة الشطرنج مع «عطوان المر» والأحفاد أحبوا القرية.

في المساء «شوكت» يتمدد على السرير مستيقظًا في غرفة نومه في جلسة ود صافية طرحت «كاترينا» عليه عرض المستشفى بأن يعمل نصف الشهر في لندن والنصف الآخر في مصر، فوجدت صعوبة في القبول ولكن «كاترينا» ألحت عليه:

- كاترينا: الدكتور ملك لأي مريض في العالم

- شوكت: والناس اللي هنا

- كاترين: المستوصف ممكن يستوعب أطباء عاديين تحت إشرافك، إمكانياتك أكبر من الطب في مصر

- شوكت: دي رسالة

- كاترينا: الطب رسالة عالمية، مش مهم فيها جنسية المريض إيه.

- شوكت: وأنا لا يمكن أن أتخلى عن أي مريض في العالم مهما كانت جنسيته

- كاترينا:(بتوسل) أرجوك تفكر في العرض (بتعقل) وكمان لازم يبقى لك دخل جزء تعيش منه وجزء تمول بيه المستوصف، ولو ح تعيش على رصيدك في البنك حيخلص

- شوكت: (بلين) ح أفكر

- كاترينا: (تبتسم) كده فيه أمل (تضحك بصوت عال) وكمان ح توافق

ابتسم «شوكت» ومسح على شعر «كاترينا» بلمسة حنان، وهى برقة أمسكت يديه، وتشابكت الأصابع، نظرت في عينيه، فوجدت فيهما بشائر الشوق والحنين، مالت عليه كغصن بان وطبعت قبلة دافئة فوق جبينه، شعر شوكت بحبها ينفجر كبركان هائل، مرت فترة من الزمن وهما يسبحان في أنهار الحب، ويغوصان في عالم السعادة.

على هامش من التوافق اشتعلت حرارة الشفاه، كل واحدة تريد أن تطبع قبلة على وجنة الآخر أو تقضم بعضها البعض، فظمأ كليهما لا يرتوي إلا بالأحضان، مال عليها تقاربت العيون التي بللت بندى النشوة، وتعانقت القلوب لتنبعث منها سخونة متصاعدة، توقف الزمن، فهطلت أمطار من القبلات المقترنة بالهواء

الدافيء والرعشة الممتعة، كأن الهمس قد انتحر فوق سيل من اللعاب اللزج يتدفق فوق الشفاه، اشتعل وطيس معركة حامية، تدفقت مشاعر جياشة تدغدغ الحواس كأنهما في ليلة زفاف جديدة.

وما كادت تمر الليلة حتى اقتنع تمامًا برأيها، فهو يجب أن يؤمن لنفسه ولمشروعه مصدر دخل ثابت، وهذا الحل سوف يجعله همزة وصل بين لندن والقاهرة، للمساهمة في نقل كل ما هو جديد إلى مصر، بل قرر أن يخصص أسبوعًا من كل شهر لإجراء عمليات جراحية لمرضى القلب مجانًا بمستشفي القصر العيني للحالات المرضية الحرجة.

وفي صباح اليوم التالي، ورغم قضاء ليلة مضنية استقظ «شوكت» مبكرًا بهمة ونشاط كأنه ودع الكسل إلى الأبد، وأحس بشوق جارف لشربة من ماء نهر النيل، فهو مازال يتذكر طعم الماء العذب عندما كان يحتسيه بين كفيه من النهر، فكلما كان يرفعه إلى فمه ليشرب وأثناء الشرب كان الماء يتساقط من بين يديه كسلاسل الفضة يبلل ملابسه وتنبعث منه رائحة ذكية، إنه يشعر بالظمأ الشديد لهذا الماء الزلال، وجد نفسه مع نسمات الصباح الباردة المنعشة يتجه نحو النهر ليشرب ويرتوي كما كان يشرب قبل سفره إلى بريطانيا.

اقترب من حافة الشاطيء، ولكن ثمة شيء قد تغير، لم يجد أشجار الجميز والتوت كما كانت تكسو حافة الجرف الكبير المطل على النهر، وكان قد لاحظ ذلك

على حافة الترع من قبل، لقد استبدلت تلك الأشجار بأشجار أخرى عقيمة لا ثمر لها، بأنواع مستوردة لا تناسب الطبيعة المصرية.

الفلاحون اجتثوا أغلب الأشجار بدعوى التمدن والتطور، ولم يبق سوى شجرة الجميز العتيقة التي قتل أسفلها «نور»، وأن سبب بقاء تلك الجميزة أن «سيد حافظ» كان يعتبرها ذكرى لأخيه «نور»، أدرك «شوكت» أن الفتى «نور» كان عبقريًّا ويسبق عصره، فتلك الشجرة ذات فوائد جمة ومذكورة في بعض المراجع العلمية.

لم يكن «نور» يمارس الدجل عندما كان يصف ثمرها لعلاج الفلاحين، فهذا التراث الطبي ميراث شعبي منذ عهد الفراعنة، وأن الطب الحديث أثبت فوائد لبن الجميز في علاج أمراض الصدفية، فهو يستخدم كدهان موضعي، ويحتوي على مضاد حيوي قادر على إبادة الجراثيم ويساعد في التئام الجروح، وثمر الجميز ملين طبيعي، وطارد للغازات ويعالج النزلات المعوية والتهابات اللثة، ولذا قدس الفراعنة تلك الشجرة ووجدت منقوشة على جدران مقبرة الملكة تيتي، ووجدت أوراق الجميز الجافة كفراش بأرضية بعض التوابيت كما أن الملك «أوزوريس» قد دفن في تابوت صنع من خشب شجرة الجميز.

وأيضًا شجر التوت، لم يعد كما كان فقد اختفى هو الآخر، فهذا الشجر عظيم الفائدة، لقد تذكر «شوكت» أنه قرأ في المراجع العلمية أن التوت

يعمل على تقوية جهاز المناعة والمساهمة في خفض تأثير المواد المسببة للسرطان، ومفيدة لصحة القلب ويحافظ على سلامة الأوعية الدموية، ومفيد في حالات التهابات المثانة، والتوت الأسود والتوت الأحمر يحميان العين من تسرّب الأشعة المضرة من الشمس، أو حتى من الضوء داخل الغرفة علاوة على ما به من فيتامينات، لماذا اجتثت هذا الشجر؟ أين الهوية؟ هل ضاعت وراء التقليد الأعمى؟ القرية انقطعت عن جذورها من دمر تلك الخصوصية؟ كل تلك الأسئلة تؤرق «شوكت» ولا أحد يجيبه عليها!!

رصدت عين «شوكت» أن شاطئ النيل فقد البريق، والأرض الفضاء الشاسعة التي كانت بين الشط والجرف تحولت إلى أرض زراعية مقسمة على هيئة مستطيلات مزروعة بمحاصيل مختلفة، وقد ظهرت بعض الكتل الخرسانية على شاطيء النهر بعد أن كان أقرب منزل يبعد عن الجرف أكثر من ٢ كيلو مترًا خوفًا من الفيضان قبل بناء السد لم تعد القرية تحمل عبق الريف.

ازداد شوقه إلى شربة ماء طازجة كالتي كان يشربها في الصغر، هبط من أعلى الجرف حتى وصل إلى النهر ما هذا؟ إن الماء لونه قاتم ويتحرك بثقل تنبعث منه رائحة كريهة لونه قد تغير أصبح ماءً آسنًا، لم يعد قاع النهر ظاهرًا بوضوح كما كان، أين الماء الزلال؟ اقترب «شوكت» أكثر وأكثر وحدق في الماء ورفع حفنة بين كفيه ما هذا؟ يا إلهي ديدان صغيرة! وقطع متناهية الصغر تقترب في حجمها من حجم حبات السمسم ولكنها عبارة عن روث وأوساخ وبراز؟

انتفض «شوكت» وألقى ما بيده انتابته حالة نفسية غريبة شعر برعشة؟ كيف تحول شريان الحياة إلى مجرى يحوي مخلفات الصرف الصحي وصرف المصانع؟ كيف تحول النهر إلى مستودع للقاذورات؟

لقد ظل «شوكت» لأكثر من ثلاثة عقود يحلم بأن يحتسي شربة من مياه النهر كما كان يفعل في طفولته اليوم الحلم تبدد، وعاد إلى القرية يحمل من الهموم ما يؤرق الجبال، لم يدرك أحد سبب حزنه ووجومه، حتى زوجته لم تره من قبل على هذه الحالة، يبدو أن حزنه على النيل لا يقل عن حزنه على رحيل أمه وصديقه «نور».

أدرك «شوكت» أنه يعيش في حلم لا علاقة له بالواقع وأن المستوصف ليس هو الحل وأن المسألة باتت أكبر من وعده لـ»نور» كيف السبيل إلى الخلاص؟ إن القرية الفقيرة التي عاش فيها طفولته كان فقراؤها أكرم من الأثرياء اليوم، وإن التكنولوجيا وثورة الاتصالات لم تؤثِّرا إيجابيًّا على سلوك البشر، لقد كان القروي المقهور الجائع البائس في الماضي أكثر حضارة من القروي الممسوخ اليوم، ذهب شوكت إلى فراشه حزينًا يحاول النوم دون أن يجد إليه سبيلًا، ظل هكذا مؤرّقًا حتى اقترب من الفجر وغالبه النعاس فإذا به يرى نور في حلمه:

- نور: مالك يا صاحبي مهموم ليه؟
- شوكت: مش هي دي القرية اللي عيشنا فيها دي مش بلدنا اللي حلمنا بيها

- نور: خربوها

- شوكت: ما عدش ممكن أحقق الحلم ، الحلم مات يا صاحبي

- نور: اصنع إنت الحلم الجديد إياك تتراجع يا شوكت اللي بوظوا بلدنا عاوزينك تيأس

- شوكت: هم مين دول؟

- نور: اللصوص الكذابون المزورون.. دورك يا شوكت تصنع الحلم اللي يناسب عصرك.

ظل صدى صوت «نور» في أذن «شوكت» حتى نهض من نومه فزعًا يتصبب عرقًا ويرتجف من الانفعال، استيقظت «كاترينا»على حركته المفاجئة في السرير وفهمت أن زوجها كان ضحية كابوس، فقامت بسرعة وأحضرت له كوبًا من الماء، فتناوله منها ويداه ترتعشان وارتشف منه بعض الماء، وأعاد الكوب إليها في هدوء، ثم استسلم للنوم مرة أخرى.

تمر الأيام ثقيلة و«غزلانة» تخطط للخلاص من «شوكت» ولكنها تؤجل ذلك إلى حين انتهاء «محجوب» من تصريف صفقة الهيروين، وفي اليوم المحدد ذهب محجوب عند الجميزة قبل الفجر فموعد التسليم هو الرابعة صباحًا، كانت الشرطة قد رصدت كل الاتصالات وتمركزت فصيلة من الأمن المركزي وقوات مكافحة المخدرات في المكان بزي مدني مختفين بين الزراعات.

كانت «غزلانة» قد أقامت في المنزل الجديد بعد أن

تعثر عليها العيش في السرايا، كانت تتقلب على السرير وهي تغط في نوم عميق ثم تنتفض وتتقلب ثانية ذات اليمين وذات اليسار وتخرج من حلقها حشرجة أشبه بحشرجة الموت فجأة ترى «نور» في الحلم أمامها يقف كما كان مذبوحًا فقط على هيئة رأس:

- نور: قتلتيني ليه يا غزلانة؟

- غزلانة: نصيبك كده، كفاية يا نور كل يوم تطاردني في نومي عايز مني إيه؟

- نور: ما أهه إنتي لو دقتي مرارة القتل كنت تعذريني وكنتي تعذري حرقة قلب أمي فوزية اللي ماتت محسورة عليّه

- غزلانة: كان لازم حد فينا يموت.. يا أنا.. يا انت

- نور: وانت كان لازم تدوقي طعم الموت وقريب ح تدوقي الموت (ينصرف تدريجيًا من أمام عينيها وصرخاته تجلجل مثيرة في قلبها الرعب)

تنهض «غزلانة» مفزوعة وتصرخ تدخل عليها «شربات» الخادمة تحاول تهدئتها فالمنزل الجديد على حافة القرية معزول عن البشر، «غزلانة» تشعر بقلبها ينقبض وتحتاج إلى طبيب ماذا تفعل؟ أسرعت الخادمة إلى «سمير» طبيب القرية لعله يساعدها وصل الطبيب وأعطاها حقنة مسكنة فغابت عن الوعي وهي تردد.

- غزلانة: مش ح دوق طعم الموت يا نور.

أسفل الجميزة العتيقة ومع أول ضوء كان

«محجوب» قد تسلم المخدرات وناولها لابنه «جابر» والخواجة قد تسلم الشنطة التي بها الثمن من ابنه «حامد» وفجأة ظهرت الشرطة، حاول «جابر» الهرب فأطلق عليه الضابط النيران فسقط على زاوية حديدية ارتفاعها متر كانت عبارة عن فاصل بين أرض العم «حافظ» وجاره من جهة الجنوب، اخترقت الحديدة رقبته ومزقتها ولم يبق سوى عرق واحد يحملها، من شدة الألم يتقلب «جابر» على الأرض حتى انثنت رأسه أسفل جسده فانفصلت الرأس وظلت مرتبطة بالجسد عن طريق الجلد لترقد الجثة بلا حراك عند جذع شجرة الجميز ليفارق الحياة في ذات اللحظة التي ذبح فيها «نور» وفي ذات المكان.

كان نصيب «حامد» طلقة رصاص استقرت في قلبه وقبض على «محجوب»، كانت طلقات الرصاص تدوي من جهة النهر على غير العادة استيقظ أهل القرية تتملكهم الرهبة والخوف، وتحركت جموع غفيرة لترى ما الخطب؟

استيقظت «غزلانة» بعد غفوة استمرت ساعة على أصوات تهرول في اتجاه النهر نحو الجميزة العتيقة، دفعها الفضول إلى معرفة الأمر انطلقت تهرول مع الحشود المتدفقة، لقد تذكرت أن تلك الحشود كانت بنفس الحجم عندما استيقظت القرية على حادثة ذبح «نور»ما هو الخطب؟

هي لا تدري إن كانت مستيقظة؟ أم مازالت تحلم؟ أم أن هناك «نور» جديد أسفل الجميزة؟ كانت

«غزلانة» تندفع بطاقة هائلة رغم أن سنها تجاوز ٦٥ سنة كانت تسبق الرجال والشباب الكل في حالة هرج ومرج وترقب، وصلت «غزلانة» لتجد ابنها «جابر» يتمدد على الأرض، ودمه يملأ المكان وجثته على جذع الجميزة التي ذبح عليها «نور»، نظرت بعينيها الأخرى وجدت الابن الثاني «حامد» ينزف ويكاد أن يفارق الحياة.

أخذت تصرخ دون أن تفهم ولكن حين رأت «محجوب» مقبوضًا عليه وبجواره الخواجة الكندي أدركت أن الشرطة ضبطتهم متلبسين بتجارة المخدرات، ظلت تصرخ وتضرب «محجوب» وتحثو عليه التراب:-

- غزلانة: قتلت الأولاد يا محجوب مش قلتلك بلاش همه (ثم تهرول على جثة حامد ترفعها وتصرخ بلوعة) نور قالي ح تدوقي طعم الموت.

تذكرت القرية حادثة «نور» من جديد وأدرك الجميع أن العدالة الإلهية لا تخطئ أحدًا، على الفور تم نقل «حامد» إلى المستوصف وقام «شوكت» بإجراء جراحة بالغة التعقيد حتى استطاع استخراج الرصاصة من قلب «حامد» لينقذه من الموت، في تلك الفترة كانت «غزلانة» تجوب القرية وقد سقط غطاء رأسها وبدا شعرها منكوشًا وتخضب وجهها بالتراب وظلت تهرول في كل مكان تنعي ولدها وتطلب من «نور» السماح حتى وصلت إلى المستوصف وقابلها «شوكت» برفق وطمأنها على ولدها فهي بين لوثة الجنون والعقل تتحرك تنعي نفسها لم تمت لتستريح ولكن

تعيش كي تتألم، فعندما يعود لها العقل تتذكر مرارة فراق فلذة الكبد وعندما تهيج بلوثة الجنون تكون عبرة لمن يعتبر.

بعد أن هدأ الحال، وبعد بضع أيام استدعى «شوكت» أصدقاءه لدراسة مشاكل القرية حضر في المساء «حمدي سويلم» واقترح إنشاء محطة للصرف الصحي بالقرية لحماية النهر من التلوث، وزراعة الأشجار المثمرة بدلًا من العقيمة، ومخاطبة الحكومة لمنح الشباب أراض زراعية مستصلحة لخفض الكثافة السكانية بالقرية وعندما جاء «رجب جودة» اقترح تحديد ارتفاعات المباني بالقرية بثلاثة طوابق فقط، والمحافظة على منسوب الشارع كان «شوكت» يدون الاقتراحات وقرر هو وأصدقاؤه عمل محطة الصرف الصحي بالجهود الذاتية، رفع مذكرة للمسؤولين بالمشاكل الأخرى للتعاون مع الدولة في حلها، وأدرك الجميع أن دورهم هو إعادة صناعة الحلم للبؤساء.

٢٠- الغدر والحلم

سرت في القرية روح جديدة، وأشرق نور الأمل على كل فرد فيها، وتحول حوش سرايا «عطوان المر» إلى قاعة اجتماعات كبرى يشارك فيها الجميع، الكل يريد أن يقدم ما لديه لتحسين حال القرية، مرة أخرى تحول «عطوان» إلى عمدة حقيقي، وبرز نفوذه في صورةٍ شوكت ولده، لقد استطاع الابن أن يصنع للعائلة شرفًا لا يدانيه شرف، وانحصرت الأضواء عن «شاهين الوزان» وتضرر طبيب القرية «سمير» من نجاح المستوصف الخيري وضرب اليأس قلب «غزلانة».

تغير الحال إلى الأفضل، ونجحت فكرة حمدي سويلم في القرية عندما اقترح إقامة مزارع حديثة فوق أسطح المنازل المبنية بالأسمنت، وخاصة أن هناك جزءًا كبيرًا من المباني الحديثة يمكن أن تستوعب زراعات جديدة مثل الطماطم على أسلاك أو عيش الغراب، تحول الكثير من أسطح المنازل إلى مزارع صغيرة تسهم في زيادة الإنتاج، وتم حل مشاكل الصرف الصحي وغيرها من مشاكل العمران.

كانت تلك النجاحات توغر صدر «شاهين الوزان» بالحقد، وبدأ يشعر أن صدره يضيق من «شوكت» فمنذ عودته وهو كل شيء في القرية، لقد ضاعت هيبته وفقد كل تأثيره، كان النجاح بمثابة قيود تطوق رقبته، فقد أصبح كل من يملك فكرة هو السيد، أو هو المنقذ، وعادت

القرية إلى أهلها، ولكن كيف يعود ابن «الوزان» إلى سابق عهده؟ هذا ما يشغله، إن تلك الصحوة تقلص نفوذه وتمنح الفلاحين دخلًا إضافيًّا، وهذا قد يثني بعضهم عن بيع الأراضي التي يشتريها.

هذا التجمع سوف يحرمه من الحصول على الإتاوات من مرشحي مجالس الشعب والشورى فقد كان يقايض على أصوات أهل القرية بالمال تارة، وبالمصالح تارة أخرى، فقد أدخل ولده الأكبر «رزق شاهين الوزان» سلك النيابة العامة مقابل دعمه لمرشح مجلس الشعب «أحمد الحداد»، كل تلك المزايا، وغيرها معرضة للانهيار حال نجاح شوكت في صياغة علاقة جديدة تمكن أهل القرية من حل مشاكلهم والاعتماد على أنفسهم.

كثيرًا ما كان «شاهين الوزان» يتساءل ما هو الحل؟ إن بقاء «شوكت» في القرية وتجمع الناس حوله سوف يفقده النفوذ، ويحد من قدرته على السيطرة، لقد حاول كثيرًا عرقلته دون جدوى، جمع حوله «سمير» طبيب القرية و»غزلانة» التي تحيا من أجل الانتقام من «شوكت»وتتفنن في نسج المؤامرات والمكائد، وانضمت «وردة» تلك المرأة اللعوب إلى القافلة بعدما استقرت في أحضان «شاهين الوزان»، كان ذلك بسبب حقدها على «شوكت» لقيامه بمنح بعض الشباب إعانات لفتح ورش صغيرة لصناعة الملابس الجاهزة، لتباع بأسعار مخفضة، أصبحت عودة شوكت تهدد تجارة «وردة» وتحرمها من استغلال الفقراء، لم تكن «وردة» تبيع الملابس إلا للمعدمين وكانوا يعلمون أن سعر الشراء مضاعف ولكن ضيق ذات اليد أوقعهم تحت طائلة الشراء بأقساط عالية.

كانت الورش تبيع الملابس بالتقسيط وبنصف الثمن، تأثرت «وردة» وتضرر زوجها «كريم» فهي لم تعد تشتري له علبة السجائر كل صباح نظرًا لكساد تجارتها.

كان «شاهين الوزان» يبالغ بحفاوة مزيفة عندما يلتقي «شوكت» لدرجة جعلت الجميع يصفونه بأنه أوفى الرجال والأصدقاء، يحرص على حضور الاجتماعات تارة للتلصص، وتارة للحصول على نصيب من المكانة الاجتماعية التي رأى أنها ضاعت منه ولابد من استردادها بأي ثمن، وكان يكلف «وردة» في الخفاء ببث بعض الشائعات داخل القرية عندما تلتقي بالنسوة، وتحرض صديقتها «حسنات» عندما تزورها:-

- وردة: هو فيه حد بيعمل حاجة لله؟

- حسنات: ما فيش غير شوكت ابن أبويه العمدة «عطوان» الله يُستره

- وردة:(باعتراض وتهكم) قصدك على المستوصف؟

- حسنات: دي حاجة ولا في الأحلام إحنا كنا فين وبقينا فين

- وردة: (تمص شفتيها) اسكتي يا حزينة دا عمله عشان يسرق الكلاوي ويديها لبلاد بره

- حسنات: (بذعر) يا لهوي؟

- وردة: أمال إيه؟ وجاب مراته الخواجاية معاه مخصوص عشان كده

- حسنات: (بألم) حقة دي تبقى مصيبة وحلت على البلد

- وردة: (تشيح بيدها) أمال يا حزينة أنا مرعوبة من إيه

- حسنات: ألطف بينا يا رب أنا ح امنع ابني عودة يروح يكشف هناك تاني.

وتولت «وردة» بث تلك السموم بالقرية، وكان «كريم» هو الآخر في جلسات الحشيش والكيف يكرر نفس الكلام ويزيد عليه:-

- كريم: فوقي يا بلد الدكتور رجع من بلاد بره عشان يدي إبر للرجالة وحقن عشان ما تخلفش،عاوزين يقضوا علينا بدون ما يضربوا رصاصة واحدة، وكمان بتوع أمريكا وإسرائيل محرضين المحروس «شوكت» يدي الناس حقن وبرشام تخليهم يموتوا بعد سنة واللا اثنين من غير ما يبان عليهم أثر.

مثل تلك الشائعات تنمو باستمرار داخل القرية، وكان طبيب المستوصف «سمير» يشارك في ترديدها، في البداية لم يصدق أحد وظلت فئة محدودة تردد ما تسمع وتزيد عليه، وكانت تلك الشائعات عندما تصل إلى شوكت يضحك ساخرًا وكان الجميع يتندر عليها بالسخرية.

ترى هل تسفر تلك الشائعات عن شيء؟ لقد استقطبت الشائعات البلهاء بعض الشباب، وأصبح هناك تيار آخر يحارب «شوكت» وزملاءه عن جهل، و»غزلانة» تدفع بسخاء وتنفق أموالها للنيل منه، فهي تريد أن

تهدمه كما هدم أسرتها وكانت تبرر ذلك باللوم عليه لأنه أبلغ عنها الشرطة، فزوجها في السجن وولداها أحدهما قد مات، والآخر بعد الشفاء لحق بأبيه في غياهب السجن، بيد أن طمعها وحبها للمال هو السبب في تدمير أسرتها وليس «شوكت» وازدادت العداوة بعد أن نجح «شوكت» في استرداد السرايا والأرض.

في البداية لم تنجح تلك الشائعات في النيل من «شوكت» وكانت تحركاته بين القاهرة ولندن والقرية كلها تحت قصف الأكاذيب المختلفة وبعد عام حضرت معه زوجته كاترينا وولداها في إجازة لزيارة القرية.

كان «فتوح الأدهم» مريض يعاني من مرض عضال، وطالت فترة علاجه في مستشفى «القصر العيني» بالقاهرة، فهو كبير عائلة الأدهم وقد تجاوز عمره سن التسعين ربيعًا، وعندما يأس الأطباء من شفائه أوصوا ابنه عماد أن يعود به إلى القرية فهو على وشك الاحتضار، وعادت به الأسرة، كان «فتوح الأدهم» على صلة وثيقة بـ»شاهين الوزان»، فهذه العائلة كانت تسرق المواشي من القرى المجاورة وتبيعه إياها بثمن بخس، وعندما ذهب ابن «الوزان» لزيارته لم تكن الزيارة من أجل الاطمئنان على المريض بل للتأكيد على توثيق الصلة مع أولاده اللصوص لضمان الاستحواذ على كل المسروقات التي تجلبها العائلة بعد الوفاة.

أمام المنزل جلس «شاهين الوزان» يدخن الشيشة وينظر إلى النار فوق حجر المعسل، كان يشفط الدخان بغيظ، فتتوهج الجذوة المشتعلة فوق حجر المعسل من

نيران الغيظ والحقد الدفين بداخل صدره، الدخان الأسود المنبعث من فمه يستمد لونه من سواد قلبه.

كان يدخن بشراهة لم تعهدها عائلة الأدهم، وكاد صوت البقللة الذي ينبعث من الشيشة كأنه حشرجة محتضر يكابد سكرات موت ثقيل، يدفع الدخان كأنه ينطلق من كير حداد خبيث، يزلزل صوت الشيشة المكان، وفجأة قفزت إلى ذهنه فكرة مجنونة حيث قال لـ «عماد الأدهم» ابن المريض:-

- شاهين: أحسن حل إن فتوح يروح المستوصف للعلاج

- عماد : وهو المستوصف ح يعمل إيه؟

- شاهين: الدكتور شوكت حاجة تانية

- عماد: بس هو تخصص جراحة وقلب وأبويه عنده تليف في الكبد

- شاهين: يا راجل ده دكتور متنور

- عماد: والله فكرة والغريق بيتعلق بقشاية نروح

كان شاهين الوزان يعلم أن فتوح الأدهم يحتضر والموت على وشك أن يحصده، ولكنه أراد أن يوقع الدكتور شوكت في فخ، فإن أعطاه مسكنات ومات سوف يتهمه بقتله، وإن رده كما فعل أطباء القصر العيني يتهمه بالتقاعس عن علاجه بسبب خصومة قديمة بين «فتوح الأدهم» و«عطوان المر» فقد تذكر أن «فتوح الأدهم» كان قد سرق في الماضي مواشي العمدة «عطوان المر» فأبلغ عنه الشرطة، وحبس «فتوح» بسبب ذلك

ثلاث سنوات، وبعد أن خرج من السجن ظل فترة طويلة ينازع «عطوان المر» تارة يحرق محصول القمح في الجرن، وتارة يقلع الزرع، وتارة بإطلاق النيران عليه، ولم يستطع وقتها أحد أن يثبت أنه الفاعل وتدخل بعض العقلاء بالقرية وتم الاتفاق على أن يكف كل طرف من شره عن الآخر، ورواسب تلك الخصومة يمكن أن تشتعل من جديد وهذا هو بيت القصيد.

عندما ذهب عماد بأبيه وأطلع الدكتور شوكت على التحليل والفحوص والأشعة اعتذر عن قبول الحالة فهي ليست تخصصه، كما أن الحالة لا يجدي معها علاج كما هو مثبت بالتقارير، وهذا ما قاله أطباء القاهرة.

رجع عماد، وعندما وصلا المنزل فارق الأب الحياة، وهنا كانت ضالة «شاهين الوزان» فراح يشيع في القرية أن شوكت رفض علاج فتوح الأدهم، وتسبب في وفاته بسبب خصومته القديمة مع «فتوح الأدهم» لقد أحيا «شاهين الوزان» تلك الخصومة وراح يؤكد لـ «عماد الأدهم» أن شوكت رفض علاج أبيه لذات السبب وكان «عماد الأدهم» كالحيوان على هيئة إنسان ولا يفكر، وقد صدق، وتدخلت غزلانة في الأمر واقترحت استدعاء طبيب القرية «سمير» الذي عمد إلى إشعال الفتنة، فعندما سأله عماد:-

- عماد: (بسذاجة) صحيح الكلام يا دكتور؟
- سمير: (بخبث) أبوك كان ممكن يخف لو الدكتور شوكت كشف عليه
- عماد:(بثورة) بس الدكاترة في القصر العيني قالولي خد أبوك وروح!

- سمير: (بتحريض) وصدقت دكاترة مصر؟ قالولك كده عشان الزحمة تلقيهم كانوا عاوزين يفضوا السرير اللي أبوك راقد عليه لواحد ليه واسطة.

هنا جن جنون «عماد الأدهم» واشتعل الغضب داخل أسرته بعد ما سمعوا الطبيب يقول ذلك، وتولت «وردة» وأمها «حمدية» وزوجها «كريم» وأذناب «شاهين الوزان» الترويج لتلك الشائعة حتى اختلط الحق بالباطل، وبعد الدفن تجمعت عائلة «الأدهم» وذهبت إلى المستوصف لحرقه في جموع غفيرة وتم إشعال النار به.

أخيرًا نجحت قوى الشر في بث الفتنة، لم يتوقع «شوكت» ما حدث، تجمع أهل القرية مع «حمدي سويلم» و «رجب جودة» لإخماد النيران التي أتت على محتويات المستوصف بالكامل لقد اقتحم «سيد حافظ» النيران لإخماد الحريق محاولًا إنقاذه دون جدوى، وتحرقت يداه وظهره وحمله الشباب بعيدًا للعلاج.

كانت النيران المشتعلة مع كل قطعة تحترق تحرق معها قلب «شوكت» لقد احمرت عيناه من غزارة الدموع، وانتابته رعشة أفقدته توازنه، وسقط على الأرض مغشيًّا عليه لماذا كل هذا؟ إن حلمه هو أن يعيش الجميع في أمن وسلام، إنه لا يريد شيئًا لنفسه أو لأولاده إن حلمه أن يحتضن الفقراء.

«كاترينا» زوجته منهارة، فهي في صورة أقرب للجنون بسبب خوفها على «شوكت» ربما تحدث له جلطة أو يصاب بالسكر، لم يكن «شوكت» فاقدًا للوعي

رغم أن جسده كان بلا حراك، لقد كان يسمع كل منٍ حوله دون قدرة منه على الرد، أصبح صوته مخنوقًا كأن هناك من يجثم على صدره، يشعر أن حلقه قد سد بلفافة من قطن، يشعر أن هناك من يلقي فوقه بأطنان من الحجارة تطحن عظامه، كأن يديه ورجليه موثقتان بحديد مؤلم، ولا يستطيع أن يطلق الآهات من صدره، يريد أن يجري ولا يستطيع الفكاك من قيوده، من قتل الحلم؟ وهل يمكن للحلم أن يموت أو يقتل؟

«كاترينا» تحاول إيقاظه، تهز جسده، تحركه، تضع رأسها على صدره لتسمع النبض فإذ بها تسمع نبضات كأنها طلقات من الرصاص، الدقات سريعة عالية كانت تخشى أن يتوقف قلبه كانت تخاطبه:-

- كاترينا: شوكت، اسمعني يا شوكت رد عليه! هو دول الناس اللي انت رجعت مصر عشان خاطرهم؟ هم دول؟ اللي انت سبت العز والجاه الشهرة والفلوس عشان تبقي جنبهم؟ شوكت بلاش تحزن أحسن تموت أنا ممكن أموت عليك مش حسيبك لو انت حي أو ميت أنا مؤمنة بيك، ح أموت معاك شوكت يا حبيبي رد عليه.

تطرق الكلمات أذن شوكت كأنها قرع بالمطارق الحديدية، لم يكن يتصور أن يكون ذلك هو الرد، التفت حوله وجد ولديه، وأصدقاءه، وأهل القرية يدعون له بالشفاء، فجأة هبط «عطوان المر» حاملًا سلاحه الآلي للانتقام أطلق دفعة واحدة في الهواء فزرع الفزع في قلب كل من سمع تلك الطلقات، لقد قرر أن ينتقم من عائلة الأدهم كلها.

ارتفعت أصوات النساء الحادة، وصراخ الأطفال ينذر بكارثة كبيرة، لقد عاد الشباب لـ»عطوان المر» مرة أخرى وكان ينفلت من الرجال الأشداء كأنه أسد جسور من أين جاء بتلك القوة؟

عاد «شوكت» للوعي مرة أخرى، عادت روحه بعدما أدميت، انبعث نور الأمل في القلوب البائسة، هدأ روع «كاترينا» توقف «عطوان المر» عن الزئير لقد أدرك أن شوكت مازال على قيد الحياة:-

- عطوان: ما يكفينيش الدنيا كلها قصادك يا ولدي

- شوكت: لا..لا حتى لو مت أنا هنا عشان الناس تعيش مش عشان تموت، إحنا طاقة نور يا بابا

انهمرت الدموع من أعين الحاضرين وسرت في الأرواح نسمة أمل فمازال «شوكت» حيًّا ومازال كما هو لم يفقد قوته ولم يفقد حلمه رغم انهيار حواسه وآلام روحه.

بيد أن ضربات «شاهين الوزان» متلاحقة فقد أوعز إلى «عماد الأدهم» أن يتقدم ببلاغه إلى النيابة يتهم فيه الدكتور «شوكت» برفض استقبال والده لعلاجه في المستوصف وهو ما أدى إلى وفاته، وقد راق هذا الاتهام للدكتور «سمير» طبيب القرية وأطباء القرى المجاورة فقد أضر المستوصف الخيري بدخولهم، فمنهم من كان يلعن قدوم شوكت، ومنهم من كان معجبًا به، لقد انقسم الأطباء على أنفسهم وانقسمت القرية إلى معسكرين، الفاسدين والمستفيدين من الفساد والبلهاء ضد معسكر الحالمين بمستقبل أفضل.

اتصل شاهين بولده «رزق» وكيل نيابة المركز

وأوصاه بضرورة تخليص القرية من هذا الرجل الذي أربك كل الحسابات، وبالطبع هذا الشبل من ذاك الأسد وقد أمر بحبس الدكتور شوكت ١٥ يومًا على ذمة التحقيق.

أي تحقيق هذا وأية جريمة تلك؟ أُحكم التلفيق عندما شهد «سمير» طبيب القرية أن الحالة كان يمكن إنقاذها، وسانده بعض الأطباء بعد أن أنكر «عماد الأدهم» وجود تقارير تفيد بأن أباه كان على وشك الاحتضار، فقد مزق «شاهين الوزان» كل الأوراق ووجهت إلى الدكتور «شوكت» تهمة الاهمال الجسيم مما أدى إلى القتل بسبب التقاعس عن أداء الواجب، وعندما طلب «شوكت» انتداب لجنة من الطب الشرعي لتشريح الجثة لتأكيد صحة موقفه، ماطل وكيل النيابة وعرقل تلك الإجراءات فكل ما يهمه هو أن يظل «شوكت» محبوسًا لأطول مدة حتى يضربه اليأس، ويغادر القرية فمصالح أبيه مهددة بوجوده فيها.

انهالت البلاغات ضد رفقاء «شوكت» ونالت «حمدي سويلم» و «رجب جودة» و «سيد حافظ» وكانت البلاغات الكيدية كثيرة لدرجة أنه كلما انتهى تحقيق ظهر تحقيق جديد، لقد كان «شاهين الوزان» يريد أن يربك كل من حول خصمه للتعجيل برحيله، وكانت غزلانة تنفق بسخاء، وتقدم الهدايا هنا وهناك وتستقطب الضمائر الميتة في صفها، ولا هدف لديها سوى القضاء على «شوكت» وزملائه، تحولت القرية إلى ساحة للخصومة والشحناء، وتوقفت الورش الصغيرة عن العمل وعاد الشباب يتسكع من جديد على النواصي.

وتحولت الشائعات بفعل التكرار لدى البعض إلى حقيقة مسلم بها، فكل ما يهم «شاهين الوزان» أن يبقى هو العمدة ليسرق القرية، ويشتري الأراضي بثمن بخس فالسلطة مبتغاه، والمال دينه، والضلال وطنه، ولكن «شوكت» مازال صامدًا، وهذا الصمود يزلزله، وفي ذات يوم كان يجلس في دواره تتملكه حالة من الغيظ، فدخلت عليه غزلانة:-

- غزلانة: (بغل) إيه يا عمدة شوكت ما بينهدش ليه؟

- شاهين: (بدهشة) حاجة غريبة بعد حرق المستوصف والشكاوي لسه مصمم على مشروعه!

- غزلانة: وإحنا مصممين أكتر

- شاهين: رزق ابني قالي إنه ح ياخد إفراج بكره

- غزلانة: شوف يا عمدة حكاية البلاغات دي مش نافعة لازم أحرمه من الدنيا زى ماحرق قلبي وحرمني من عيالي

- شاهين: إزاي؟

- غزلانة: (بخسة) هي رصاصة

- شاهين: (ينهض واقفًا يتصنع الرفض) كله إلا كده

- غزلانة: هو ده الحل

- شاهين: (بتمثيل) أنا ما ليش دعوة بالقتل، دي مش سكتي

- غزلانة: (بخبث) عليّه أنا؟ إذا كان عليك عاوز تقطعه ميت حتة لكنك خايف تنكشف وتروح منك العمودية

- شاهين: كل واحد عارف مصلحته ومصلحتي إني أكون بعيد وانتي حرة

- غزلانة: هو عماد الأدهم؟ ح أدفع له

- شاهين: أنا ما ليش دعوة

- غزلانة: (تنظر إليه بخبث) ما حدش ح يعرف إنك معايا

- شاهين: إتصرفي بعيد عني

- غزلانة: دي مهمتي (تنصرف)

تلمع عين «شاهين الوزان» فرحًا ورجاء، فبعد يوم واحد ستخترق رصاصات عماد الأدهم قلب شوكت وينتهي هذا الكابوس، وجاء اليوم الموعود، وخرج «شوكت» من الحجز بعد براءته من كل التهم التي لفقت له.

حضرت «كاترينا» لاستقبال زوجها من سرايا النيابة، ركب السيارة بجوارها، وكانت لهفة كل منهما للآخر عارمة، عيناهما تشتاقان إلى اللقاء، النظرات الدافئة تبحث عن الاستقرار كما يبحث الليل عن السكون، تسلل من قلبيهما ينابيع الحنان، وحلق الحب في عالم الأحلام الطاهرة، أينعت الأحاسيس النبيلة ورودًا فوق الوجنات.

انتابت «كاترين» مشاعر رقيقة كتلك التي شعرت بها عندما خفق قلبها لأول مرة بحب «شوكت» لتسري في روحها نسائم الحب من جديد، فجأة تمسك يده قابضة

عليها بلهفة كالقابض على العمر حتى لا يلوذ بالفرار، شعرت أن وهج الشوق للحياة يتصاعد من يده هو الآخر، كانت تسمع للأيادي همسًا وهي متشابكة متلاحمة، فالأصابع تتعانق وتتداخل، وباللمس الرقيق الأنامل تقبل بعضها البعض، ودقات القلب ترقص على نغمات ساحرة كأنها في حفلة عرس الحضور فيه مقصور فقط على الحواس النبيلة، فالحبيبان يتشبث كل منها بالآخر، حتى يزدهر مخاض الحلم من جديد؟

توقف التفكير مثلما توقفت عقارب الساعة، وتوقف الزمن بالنسبة له عندما التفتا فوجدا بندقية «عماد الأدهم» مصوبة نحوهما، لم يمهل «عماد الأدهم» أيهما لحظة للحديث أو فرصة للحوار، وأطلق رصاصة تلو رصاصة وولّى هاربًا.

سخونة المشاعر الصادقة لم تجعل «شوكت» يشعر بألم الرصاص أو حرارته، فقط شعر كأن شظية دافئة مرّت في قلبه لتخترق جسده وتستقر في قلب «كاترينا» سال الدم وتدفق كأنه نافورة والحبيبان يتعانقان حتى لا يفترقان حتى في لحظة الموت، برهة وذبل الوجه، وخفت الصوت وظهر نور من نافذة طفولته يستقبل صديقه ورفيق عمره مستلقيًا في حض زوجته والدموع تنهمر من عينه وهو يكلم خليله:-

- نور: رصاصة الغدر صابتك يا حبيبي

- شوكت: (باكيًا) زيك يا نور إتغدر بيّه.

- نور: بس كاترينا ماتت معاك من غير ذنب

- كاترينا: (تري نور لأول مرة وتخاطبه وهي

تبكي) إنت نور؟

- نور: أيوه يا كاترينا أنا نور

- كاترينا: أنا عرفاك

- نور: وأنا كمان عارفك مرات حبيبي

- كاترينا: أنا مبسوطة عشان عشت مع شوكت وعشان بموت معاه

- نور: الحب عمره ما يموت، وشوكت عمره ما ح يموت شوكت حلم الخير، والحلم عمره ما يموت، شوكت حب، والحب ح يفضل عايش طول ما الإنسان عايش فوق الأرض.

- شوكت: شوفتي نور يا كاترينا؟ شوفتي طاهر قد إيه؟ شوفتي حلو قد إيه؟

- نور: إيه الدموع دي بلاش دموع إنتم هنا جايين للخلود

- كاترينا: ح أفارق شوكت مش عاوزه أسيبه

- نور: مين قالك إنك ح تسيبيه من مات على شئ بعث عليه وانتي يوم القيامة ستبعثي في حضن شوكت زي ما انتي كده

- كاترينا: (تضحك بفرح) خلاص يا شوكت يا حبيبي طالما ح موت معاك وربنا حيبعثني معاك أنا فرحانة

- شوكت: (يبتسم) تعالي في حضني ضميني عشان نموت سوى في لحظة واحدة.

فجأة يفارق الحبيبان الحياة متعانقين، فتلك الحالة التي ماتا عليها ويتمنيان أن يبعثا عليها لقد استشهدوا في سبيل الحب.

من بعيد جاءت جموع غفيرة يسبقها «عطوان المر» وحفيداه «نور» و«نبيل» يقترب «عطوان» يهز «شوكت» تارة و «كاترينا» تارة أخرى:-

- عطوان: (والدموع تنهمر من عينيه) قتلوك يا ولدي آآه آآه، غدروك وانت جاي تزرع لهم الخير، غدروك ليه؟.. لا يا شوكت ما تسبنيش لوحدي يا ابني، أنا عرفت الدنيا بجد أول ما رجعت، أنا عرفت الحق بسببك، كانت ضايع كنت ميت ورجعتني للحياة عشان تمشي منها.. كنت ولا حاجة، يا «شوكت» ضهري انقطم ياولدي

- نور شوكت: (يصرخ باكيًا) بابا دادي مامي لا لا أنا بحبكم مش عاوزكم تموتوا

- نبيل شوكت: (ببكاء مخنوق) بابا سايبني لوحدي؟ وماما كمان معاك، طيب كان حد فيكم يستنى (ينهار باكيًا). يا جدو.. ليه ده حصل؟

تتقدم الجموع تجذب «عطوان المر» و«نبيل شوكت» و «نور شوكت» وتسود حالة من الغليان، القرية كلها تشتعل، والرغبة في الثأر تطمس أي رغبة سواها فينهض حمدي سويلم:-

- حمدي: آه يا بلد مجروحة يا بلد مقهورة يا بلد مريضة ومنهوبة آه..آه.. مش ممكن حالنا يتغير أو بلدنا تتقدم وفيها عقارب بتبخ السم فينا،

الفساد عمره ما ح يسيب الحق ينتصر وعشان كده لازم نقلعه من جذوره، عدونا استغل الجهل وخلى الأغبياء يقتلوا طاقة النور، «شوكت» أتقتل عشان كان عاوز يفتح بوابة الخير للكل، مفيش تغيير غير لمّا نقضي على كل الفسدة، دول همّا سبب فقرنا وجهلنا، دول همّا اللي أخرونا.

تحركت الجموع تحمل المشاعل والسلاح للخلاص من العمدة اللص « شاهين الوزان» والبلطجي «عماد الأدهم» والفاجرة «غزلانة» والشيطان المثقف «سمير» طبيب القرية، لقد كان الجميع يرون صورة الفتى «نور» كأنه فوق رؤوسهم يرشدهم ويحثهم على الخلاص من قوى الشر بالقرية لتتنعم بغد مشرق

طغى هدير الحلم فوق الجراح بين الجموع الغفيرة التي تنزف الأعمارألمًا، لم يعد للحياة طعمًا بدون أن يرتدي الحالمون قلادة الأمل، تحركت جحافل الضوء تشق الظلام بالصدور، وكأن الحياة تأذن في النائمين للصلاة على أعتاب الطهر، فتوضأت القلوب بالبصيرة، وحلقت الأرواح فوق الأماني تبتغي الماء الزلال؛ لتغسل ما ران على الأفئدة بالنور، وعندما تطهرت النوايا؛ انبلج من الأعماق وجه الملائكة يحوم فوق السنين؛ ليزيح مع البشر جبال الجهل من فوق العلوم، فقبض الجميع على خيوط الفجر يجذبون الشروق من جوف السماء حتى يأتي بالصبح الجديد.

النهاية

القاهرة / ٢٠١٢/٧/٣٠

السيرة الذاتية للمؤلف

صلاح شعير

- مواليد ١٩٦٦ / المنوفية / عضو اتحاد كتاب مصر

ماجستير في الاقتصاد ٢٠١٣ م.

نشر الكثير من المقالات والدراسات بالصحف الورقية والإلكترونية من ٢٠٠٣ – ٢٠١٥م.

أولا : الأعمال الفكرية

- أصدر جريدة جماهير أكتوبر عامي ٢٠١٠/٢٠٠٩ وترأس مجلس إدارتها
- كتاب مدينة ٦اكتوبر والاقتصاد المصري ٢٠١١م.
- الطائفية و التقسيم – ٢٠١٥م.
- حلم التكامل الأقتصادي ٢٠١٥م.
- أنشأ مدونة صلاح شعير فبراير ٢٠١٥ / salahshoier.blogspot.com

تحت الطبع

- الصناعة بالمدن الجديدة –التجربة المصرية : ٢٠١١/١٩٨١م.
- النهوض بالمدن الجديدة – التنمية الاقتصادية.
- مخطوطة "السياحة بالوطن العربي ".

ثانيا : الأعمال الأدبية

١- الروايات

- رواية العنيدة والذئاب – دار مكتوب ٢٠١٢م.
- أحلام الملائكة –دار الجندي ٢٠١٦م.

• الظمأ والحنين – أدب الخيال العلمي للفتيان دار الجندي ٢٠١٥

٢ - مجموعة قصصية للطفل تحت الطبع : أخلاق الفرسان - عاشق الحرية

٣ - المسرح العربي :

• وطن للبيع مجموعة مسرحية ساخرة- (وطن للبيع – عالم ستات – لصوص الرحمة) – دار الحضارة العربية ٢٠١٤م.

• حرامي الفيل مجموعة مسرحية للطفل ("وعد الحر" - "حرامي الفيل" المرحلة من ٩:١٢ سنة – و"المفتري ندمان" للمرحلة فوق ١٢ سنة) دار الحضارة العربية ٢٠١٤م.

مسرح الفصحى تحت الطبع للنصوص التالية : ("أبواب الأمل" ، "حمار الخليفة" ، "قلب صناعي" ، " الصبار" - المسرح الإذاعي : "الساحرة والحكيم" - مسرح المونودراما " : ليلة عاصفة" - مسرح الطفل : مملكة الأسود)

٤- عامية مصرية (تحت الطبع) - خيار وفقوس

ثالثا : كتب الفنون والتراث : عبقرية النكتة المصرية – (تحت الطبع)

رابعا : الجوائز :

- جائزة أفضل مقال صحفي عربي عن المرأة بالإقليم العربي – مركز الكوثر – تونس ٢٠١٥م.

- قائمة أفضل عشرين نص مسرحي موجه للطفل للأعمال غير المنشورة – عن نص "مملكة الأسود" دولة الأمارات العربية - الهيئة العربية للمسرح ٢٠١٤ م.

salah2fsh2@yahoo.com

المحتويات

١ـ جميزة العم حافظ.................................. ٤

٢- البؤساء.. ١٠

٣- الغيرة القاتلة.. ١٨

٤- السرايا.. ٢٧

٥- المصيف والشقاء.. ٣٤

٦ – السقوط.. ٤٢

٧ – أحلام الملائكة.. ٥١

٨- الجريمة.. ٦١

٩- الوداع الأخير.. ٦٨

١١- شؤم المعصية والآلام.............................. ٨٠

١٢- الهروب.. ٨٩

١٣- الأمل... ٩٤

١٤- الغزو... ١٠٢

١٥- المفاجأة.. ١٠٨

١٦- العودة... ١١٦

١٧- المواجهة... ١٢٦

١٩- الفجر.. ١٤٢

٢٠- الغدر والحلم.. ١٥٧